# سَمْتُ البِنَاءِ التَّرْكِيبِيّ لِسُورَةِ الطَّلاق

إعـــــداد الباحث :
عَلِى مَحْمود عبَّاس مُوسَى الصَّالِح

مُدرس البلاغة والنقد فى كلية
الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بقنا

١٤٣٥ هـ / ٢٠١٤ م

## بسم الله الرحمن الرحيم

## المُـــقدّمـــَة

الحمد لله ربّ العالمين ،والصّلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمّد وعلى آله وصحبه ومَن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين ،وبعد :

فإنّ الغوصَ فى أنسجة كلام ربّ العالمين ،ومبانيه ،وأحوال كلماته ،وتحليل بنية تراكيب الكلام مِن الأهمِّية بمكان ؛حيثُ إنّها تقف بالقارئ على السِّمات الدّقيقة والخواصّ الفريدة التى بُنِى عليها النّظم الكريم ،والتى راعت مقاصد سوره على اختلافها ،فلكلّ سورة مِن سور القرآن الكريم نسيج خاصّ ،وبناء متميِّز ،يسير جنبًا إلى جنب مع أهداف السُّورة وموضوعها ،وهذا ما يفسِّر للقارئ اختلاف الأنسجة اللغوية والمبانى مِن سورة وسورة ،وهذا مِن عجيب النظم الكريم ،ولعلّ هذا ما جعل الباقلانىّ ــ رحمهُ الله ــ يقول : " لا يخفى على أحد يميز هذه الصنعة سبك أبي نواس من سبك مسلم ،ولا نسج ابن الرومي من نسج البحتري ،وينبهه ديباجة شعر البحتري وكثرة مائه ،وبديع رونقه ،وبهجة كلامه ،إلا فيما يسترسل فيه فيشتبه بشعر ابن الرومي ،ويُحرِّكه ما لشعر أبي نواس من الحلاوة والرقة والرشاقة والسلاسة حتى يفرِّق بينه وبين شعر مسلم ،وكذلك يميز بين شعر الأعشى في التصرف ،وبين شعر امرئ القيس وبين شعر النابغة وزهير ،وبين شعر جرير والأخطل والبعيث والفرزدق وكل له منهج معروف وطريق مألوف ،ولا يخفى عليه في زماننا الفصل بين رسائل عبد الحميد وطبقته وبين طبقة من بعده حتى إنه لا يشتبه عليه ما بين رسائل ابن العميد وبين رسائل أهل عصره ومن بعده ممن برع في صنعة الرّسائل وتقدّم في شأوها ... " [1] وأنّ ذلك شبيهٌ عندَه بمَن " إذا عرف خطّ رجل لم يشتبه عليه خطّه حيثُ رآه مِن بين الخُطوط المُختلفة "[2] وهذا لأنّ لكلِّ واحدٍ ينبُوعا مِن المعانى ،تجيش فى فؤاده ،يستسقى منها ما يتفق مع ذائقته وما ركب فى طبعه .

وهذا الباب عَصِىّ يجود عليك ــ إنْ أكثرتَ الطّرق وأدمنت النظر ولزمت التفتيش ــ حينًا ،ويمنعك أحيانا كثيرة ،فذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ،فلهذا العلم رجاله الذين يستقرون دقائقه ،ويدركون مُخبَّآته. هذا ،وقد كان المنهج التحليلى عماد هذا البحث ؛إذ هو الأنسب لطبيعة البحث فى بناء التراكيب ،وقد كان ذلك على النحو التالى :

أولًا : قراءة سورة الطّلاق قراءة متأنّية تكشف عن سمات البناء التركيبى المميِّزة لها .

ثانيًا : تحديد أبرز السِّمات الأسلوبية التى انتشرت فى السُّورة الكريمة ،والوقوف على خصائصها الدّقيقة مِن خلال التحليل الواعى الكاشف لها .

---

(١) إعجاز القرآن للباقلانى-تح:السيد أحمدصقر-١/١٢١- ط: دارالمعارف- مصر - ط:خامسة-١٩٩٧ م .

(٢) المرجع السابق ١ / ١٢٠

ثالثًا : الوقوف على بعض أسرار التناسب فى السورة الكريمة ،كتناسب معانى السورة مع اسمها ،والتناسب بين أساليبها ،وتناسب المقصد للفاتحة والخاتمة ،وهكذا .

رابعًا : محاولة الكشف عن وسائل صياغة الكلام ،وطرقه التى يكثر عليها بنيانه ،محاولةً من الباحث التعرُّف على البناء اللغوى لسورة الطلاق .

هذا ،وقد استقام البحث فى أربعة مباحث ،تسبقها مقدمة وتمهيد ،وتعقبها خاتمة وفهرس للمصادر والمراجع .

أمَّا المقدمة فاشتملت على أهمية البحث فى هذا الموضوع ،ومنهج البحث وخطته .

وأمَّا التمهيد ففيه : مفهوم البناء التركيبى ،وإلقاء الضوء على سورة الطلاق .

المبحث الأول : سمت أسلوب الشرط فى سورة الطلاق .

المبحث الثانى : سمت التناسب فى سورة الطلاق .

المبحث الثالث : بناء السورة على الترقى وتنامى المعانى .

المبحث الرابع : سمت بناء الكلمة فى سورة الطلاق .

وأمَّا الخاتمة ففيها أبرز النتائج .

**والحمدلله ربِّ العالمين ،وصلَّى الله وسلَّم على سيدنا محمّد وعلى آله وصحبه أجمعين .**

## تمهيد

يشتمل على إطلالة على مفردات عنوان البحث : (سمت ،البناء التركيبي ،سورة الطلاق)

### أولا : مفهوم السمت :

يدور معنى السَّمت في كُتُب اللغة حول معنى الطريق والهيئة والمذهب، ففي اللسان: "السَّمْتُ: الطريقُ، يقال: الْزَمْ هذا السَّمْتَ.. والسَّمْتُ هيئة أهل الخير ،يقال ما أَحْسَنَ سَمْتَه أي: هَدْيه ،وفي حديث عمر –رضي الله عنه– فينظرون إلى سَمْتِه وهَدْيه أي: حُسْنِ هيئته ومَنْظَرِه في الدين،وليس من الحُسْنِ والجمال"[1] وفي الْمُغْرِبِ فِي تَرْتِيبِ الْمُعْرِبِ:"السمت: الطريق ،ويُستعار لهيئة أهل الخير ،فيقال "ما أحسن سمت فلان!"[2] وفي المعجم الوسيط: "(السمت): الطريق الواضح والمذهب"[3] فمدلول لفظ السمت مع درس البناء التركيبي يجعل الدراسة لهذا الباب مقصورة على الأساليب التي شاعت أو غلب بناء السورة الكريمة عليها ،وهنا يتلاقى المدلول بمعناه اللغوي العام أعني الطريق والهيئة ،ومعناه المقصود هنا ،حيث تقف الدراسة عند الأساليب التي كان لها طابع مميز وأنه قد غلب بناء السورة عليها حتى أضحت طريقا واضحة غالبا ما يسير صاحب البيان عليها ،وهذا هو الفارق الدقيق بين درس المظاهر الأسلوبية ،ودرس السمات للبناء الأسلوبي ،فالأول لا يشترط فيه الشيوع والغلبة ،والثاني بخلافه. ودرس هذا الباب إنما يكون في تتبع خواص التراكيب وظيفة علم المعاني ،فمن خلاله نستشرف" حقائق محددة في تحليل ووصف وتحديد الملامح الأسلوبية الخاصة في أدب كل أديب ،وفكر كل مفكر ،وفقه كل فقيه ،إلى آخر حقول المعرفة العظيمة والزاخرة"[4] وعلى رأسها كلام رب العالمين ،حتَّى يبين لنا خصائصه وطرائق مبانيه ،ومنازعه الأسلوبية، ومذاهبه في بناء الصور والألوان البلاغية على اختلافها ،وحتَّى يظهر في وضوح طرائق تكوين الجمل وروابطها إلى غير ذلك من الأسرار والدقائق التي لا منتهى لها. وهذه الدراسات هي الوجه الآخر لنظرية النظم الجرجانية ،فقد ذكر الإمام عبد القاهر أنَّ" الأسلوب: الضرب مِن النَّظم والطريقة فيه"[5]

---

(١) لسان العرب لابن منظور – مادة ( س م ت ) – ط : دار صادر – بيروت – ط أولى – د ت .

(٢) الْمُغْرِبِ فِي تَرْتِيبِ الْمُعْرِبِ للمطرزى ـــ تح : محمود فاخوري و عبد الحميد مختار ـــ مادة ( س م ت) ـــ ط : مكتبة أسامة بن زيد – حلب ـــ ط : أولى ـــ ١٩٧٩ م

(٣) المعجم الوسيط ـــ تأليف: إبراهيم مصطفى / أحمد الزيات / حامد عبد القادر / محمد النجار، تح : مجمع اللغة العربية ـــ مادة ( س م ت ) ـــ ط : دار الدعوة .

(٤) دلالات التراكيب ـــ دراسة بلاغية للأستاذ الدكتور محمد محمد أبو موسى ص ٢١ ـــ ط : مكتبة وهبة ـــ القاهرة ـــ ط : ثالثة ـــ ١٤٢٥ هـ ـــ ٢٠٠٤ م .

(٥) دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر الجرجاني ـــ تح : د التنجي ص ٣٣٨ ـــ ط : دار الكتاب العربي ـــ بيروت ـــ ط : أولى ـــ ١٤١٥ هـ ـــ ١٩٩٥م .

يقول ابن خلدون" ولنذكر هنا مدلول لفظة الأسلوب عند أهل هذه الصناعة ،وما يريدون بها فى إطلاقهم ،فاعلم أنها عبارة عندهم عن المنوال الذى تنسج فيه التراكيب ،أو القالب الذي يفرغ فيه"[1]

**ثانيا: فى رحاب البناء التركيبى :(مفهومه والغاية المرجوة)**

عندما "نظر علماؤنا فى طرائق الكلام وضروبه ،وفتحوا باب تصنيف أساليب الأدب وفنونه ،وهم فى ذلك لم يقصدوا إلى بيان الفاضل والأفضل ،وإنَّما قصدوا إلى النظر فيما تمتاز به ضُروب الكلام ،وكيف تتشخَّص هيئاته ومبانيه ،وكيف يكون منها ما هو كالقالب يبنى فيه البنَّاء ،وكالمنوال يجرى فيه النسَّاج نسجه ،وسمّوا ذلك أُسلوبا ،وسمُّوا علمه علم الأساليب"[2] وإذا كان الإسناد هو أساس المفاضلة بين كلام وآخر ،وأنَّه لا فرق بين كلام زيد وكلام عمرو إلا من جهة هيئة البناء ،وطريقة النسج ،وكيفية التركيب ،فيحسن كلام أحدهما لما اشتمل على حسن ضم المفردات بعضها إلى بعض ،وتآلف التراكيب ،وتناغم المعانى ،ويقبح الآخر لعكس ذلك .

فيكمن معنى البناء التركيبى فى إبراز وصف أحوال مبانى الجمل ، وكيف كان نسجها؟ ،ثم كيف تتابعت وتلاحقت؟، وبنى بعضها على بعض من أول جملة إلى آخر جملة ،... ،ثمَّ فى إظهار الأحوال الأسلوبية المنبئة عن خصائص كلّ ذى كلام يبين به إبانة مصقولة عن أغراضه ومقاصده [3]

يقول شيخ هذه الصناعة" لا يكفي في علمِ الفصاحةِ أن تنصبَ لها قياساً وأن تصفَها وصفاً مُجملاً وتقولَ فيها قولاً مُرسَلاً بل لا تكون من معرفتها في شَيْءٍ حتى تُفَصِّلَ القولَ وتُحَصِّلَ وتضعَ اليدَ على الخصائصِ التي تعرضُ في نظمِ الكلمِ وتعدَّها واحدةً واحدةً وتسمِّيَها شيئاً شيئاً وتكون معرفتُك معرفةَ الصَّنع الحاذقِ الذي يعلمُ علمَ كلّ خيطٍ منَ الأبريسَم الذي في الدِّيباج وكلّ قطعةٍ منَ القطع المَنْجورة في الباب المُقَطَّع وكلّ آجُرَّةٍ منَ الآجُرِّ الذي في البناء البديع"[4] وإذا كان البناء التركيبى فى الشعر هو" عبارة عن تحديد طرائق الشاعر فى الوصول إلى أغراضه، ووسائله فى صياغة تراكيبه، وطريقته الخاصة فى تكوين جمله، وسمته المميز فى نحت كلامه. هو نظمه الذى ينفرد به عن غيره من الشعراء، وسبكه الذى يتميز به عمن سواه، وطريقته الخاصة فى مبادئ كلامه، وخواتمه، ومطالعه، ومقاطعه، وفى فصله، ووصله، وحذفه، وذكره، وتعريفه، وتنكيره، إلى غير ذلك من الوجوه التى لا تنتهي، والتى أودع

---

(١) مقدِّمة ابن خلدون ـــ تح : عبد الله محمد الدرويش ص ٤٨٩ ـــ ط : دار يعرب ـــ دمشق ـــ ط : أولى ـــ ١٤٢٥ هـ ـــ ٢٠٠٤ م

(٢) دلالات التراكيب ـــ دراسة بلاغية للأستاذ الدكتور محمد محمد أبو موسى ـــ ص ٢٧ ـــ ط : مكتبة وهبة ـــ القاهرة ـــ ط : ثالثة ـــ ١٤٢٥ هـ ـــ ٢٠٠٤ م .

(٣) ينظر : دراسة فى البلاغة والشعر د : محمد محمد أبو موسى ـــ ص ٢٢٤ ـــ ط : مكتبة وهبة ـــ ط أولى ـــ ١٤١١ هـ ـــ ١٩٩١م .

(٤) دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر الجرجانى ص ٤٨

فيها الشاعر غلالة نفسه، وسر شاعريته. وهو كذلك عبارة عن طريقة الشاعر الخاصة فى وضع كلامه الوضع الذى يقتضيه علم النحو ،والعمل على قوانينه ،وأصوله على وفق أغراضه التى يقصدها ،والمعانى التى يؤمها ،أى أنّه هو النظم الذى جعله الإمام عبد القاهر الجرجانىّ ـــ رحمَهُ الله ـــ مرجع المزية ،والفضل فى الكلام [1] فـــ " إنّ لكلّ كاتب وشاعر مذهبا وطريقا فى الكلام ،يتميز به عن مذهب غيره ،وطريق غيره ،وكلّ صاحب بيان يتكئ على قلبه وعقله ،ويستخرج بيانه من ذات نفسه ،هو لا محالة واضع ميسمه ووسمه وسيماه على بيانه ،فلا تخطئ العين المدرَّبة تمييز طريقه"[2] والدراسة تقوم فى هذا الباب على شعر الشاعر كلّه ،تحدد طرائقه ،وتستقصى فنونه وما غلب عليه من وسائل الصياغة ،ونحت الكلام [3] فإنّه فى النظم القرآنى هو عبارة عن تحديد خصائص سور القرآن الكريم سورة سورة من إبراز كيفية بنائها ،وطريقة سبكها ،ووصف أنسجتها اللغوية التى شُكِّلت عليها ،وتبيان أسرار اختلاف سبك كل سورة عن غيرها بما يتواءم مع غرضها وموضوعها ،فإنّ لكلّ سورة مِن سُور القرآن الكريم نسيجًا خاصًا ،وبناءً فريدًا ،يختلف عن ذواتها ،ويتلاقى مع مقصدها الرَّئيس ،وهدفها العام ،وهذا ما يُفسِّر للقارئ سرّ تنوع بناء الأسلوب ذاته ،فهيئة بناء الشرط مثلا فى سُورة الطلاق يختلف عنه فى سورة الواقعة ،وبنية الاستفهام مثلا فى سورة (ص) يختلف عن غيره فى سورة أخرى ،حتَّى إذا ما تَمت دراسة الأسلوب الواحد فى كلّ سورة على حدة استطاع القارئ أن يقف على السَّمت العام لأسلوب معين فى القرآن الكريم كلّه ،فتثرى الدراسات البلاغية ،ويتمكن لنا حينئذ الوقوف على ملامح إعجاز القرآن الكريم ،وخواصّه البيانية التى لا تكون لغيره . فيمكن ـــ بأخصر لفظ ـــ تحديد مفهوم البناء التركيبى بأنّه القالب والمنوال الذى يجرى فيه النَّظم ،أو الوعاء الذى يضمّ أدوات السَّبك والنسج ،أو هو المترع والمهيع الذى يترسَّمه صاحب كل ذى بيان ،فلا يضل عنه بحال. والمنازع هى " الهيئات الحاصلة عن كيفيات مآخذ الشعراء فى أغراضهم وأنحاء اعتماداتهم فيها ،وما يميلون بالكلام نحوه أبدا ،ويذهبون به إليه ،حتَّى يحصل بذلك للكلام صورة"[4] وقد يعنى بالمترع أيضا كيفية مآخذ الشاعر فى بنية نظمه ،وصيغة عباراته ،وما يتخذه أبدا كالقانون فى ذلك[5] فإذا كان لكل إنسان بصمة إصبع ،أو بصمة عين ،خاصة به وحده لا يمكن على سعة تعداد البشر أن تتماثل بصمة إنسان مع غيره ،فإنّ لكلّ ذى بيان

---

(١) البناء التركيبي فى ديوان سلامة بن جندل ـــ أحمد رمزى عبد اللاه غنيم ـــ رسالة ماجستير ـــ جامعة الأزهر ـــ تحت إشراف أد على عبد الحميد أحمد عيسى ـــ ٢٠١٠ م .

(٢) الخصوصيات البلاغية فى رسائل أبى العلاء الإخوانية ـــ نداء ثابت العرابى ـــ ص أ ـــ رسالة ماجستير تحت إشراف د محمد محمد أبو موسى ـــ ١٤٢٤ هـ ـــ ٢٠٠٣ م ـــ جامعة أم القرى .

(٣) ينظر : دراسة فى البلاغة والشعر ص ١٨٣

(٤)منهاج البلغاء وسراج الأدباء لحازم القرطاجنى ص ٣٦٥ تح محمد الحبيب ابن الخواجة ط: دار الغرب الإسلامى

(٥) ينظر: السابق ص ٣٦٦

بصمة فيما ينظم تتعرَّف من خلالها عليه ،وتأخذك إلى المعرفة الخالصة بأنَّ هذا النظم هو نظمه لا نظم غيره ،حتى لو تفرَّق نظمه بين نظوم غيره ،فإنَّك ـــ إنْ عرفتَ قالبه الذى ينظم به ـــ مميزُهُ لا محالة ،يقول شيخنا الدكتور محمد أبو موسى : " قرأت فى بعض الكتب أنَّ الزمخشرى نقل تفسيره من تفسير على بن عيسى الرمانى ... فلما طالعت هذا المخطوط ابتدرنى إحساس بأنَّ هذا الكلام ليس فيه طبع تراث القرن الرابع الذى عاش فيه الرمانى "[1] فالبناء التركيبى نافذة يمكن أن تشرف منها برأسك على الإعجاز القرآنى من خلال الوقوف على العناصر المكونة لهذا البيان القرآنى الذى أفحم قوما هم مصاقع لُسْن حذقوا البيان وعرفوا كيف يحاك .

**ثالثا : بين يدى سورة الطلاق :**

سورة الطلاق من السور المدنية التى عالجت أحكام التشريع ،ورسمت الطريق لأهل الإيمان ،وبيَّنت لهم ما فيه أمر صلاح دينهم ودنياهم. فالسور المدنية" تستهدف بناء المجتمع الإسلامى على أسس من الإيمان والطاعة والتشريعات التفصيلية فى شؤون الحياة ،كما استهدفت حماية المجتمع الإسلامى من الأخطار الداخلية والخارجية .... فلا تخلو سورة مدنية من قضية البناء أو الصيانة والحماية"[2] لكن يدور مقصود السُّورة الرَّئيس حول إبراز شكل العلاقة الأسرية بين الرجل والمرأة فى مرحلة حرجة هى مرحلة انفصال الزوج عن زوجه،حيث تترع النفس البشرية ساعتئذٍ إلى الظلم ،فبنيت السورة الكريمة من أولها إلى آخرها على ما يترع هذا الحرج ،وسيبدو ذلك جليًّا حين نقف على سمت أساليب السورة الكريمة سواء من تتابع الأوامر والنواهى ،أو من الترغيب والترهيب عن طريق الشرط والجزاء ،وغير ذلك ، فالسورة " لم تدع شيئاً من أنقاض الأسرة المفككة بالطلاق إلا أراحته في مكانه ، وبيَّنت حكمه ، في رفق وفي دقة وفي وضوح ،ويقف الإنسان مندهشاً أمام هذه السورة وهي تتناول أحكام هذه الحالة ومتخلفاتها ،وهي تحشد للأمر هذا الحشد العجيب من الترغيب والترهيب ، والتعقيب على كل حكم ، ووصل هذا الأمر بقدر الله في السموات والأرضين ، وسنن الله في هلاك العاتين عن أمره ، وفي الفرج والسعة لمن يتقونه " [3]واللفت إلى مقصود السورة الكريمة أمر فى غاية الأهمية ،ولا يجوز إغفاله ،حيث إنَّ بناء الأساليب فى السورة الكريمة على اختلافها وتنوُّع أشكالها قائم على تحقيق هذا المقصود ،وهى مُتشربة منه ،وسائرة نحوه ،وراغبة فيه لا محالة ،رحم الله البقاعى القائل: "ومَنْ حقَّقَ المقصودَ مِنْها ـــ يقصد من سور القرآن الكريم ـــ عرف تناسب آيها وقصصها وجميع أجزائها"[4] وبعد هذا

---

(١) دلالات التراكيب ص ٢٩٠

(٢) مباحث فى التفسير الموضوعى للدكتور مصطفى مُسْلِم ص ٤٣ ط : دار القلم دمشق ط : ثالثة ١٤٢١ هـ ـــ ٢٠٠٠ م

(٣) فى ظلال القرآن لسيد قطب ـــ ٦ / ٣٥٩٤ ـــ ط دار الشروق ـــ القاهرة ـــ دت .

(٤) مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور للبقاعي ـــ قدم له وحققه وعلق عليه وخرج أحاديثه الدكتور عبد السميع أحمد حسنين ـــ ١ / ١٤٩ ـــ ط : مكتبة المعارف ـــ السعودية ـــ ط : أولى ـــ ١٤٠٨ هـ ـــ ١٩٨٧ م .

العرض لمقصد السورة الكريمة أدلف إلى بيان سمت بناء الأساليب التي شاعت وغلب بناء السورة الكريمة عليها ،أو كان لها وجود ظاهر ،فأقول وبالله التوفيق :

**المبحث الأول : سمت بناء أسلوب الشرط في السورة الكريمة :**

لعلَّ أبرز ما بُنيت عليه سورة الطلاق هو أسلوب الشَّرط ،وقد استعان به النَّظم الكريم استعانة واضحة ،ووظَّفه توظيفًا جيدًا في تبيين أحكام اجتماعية أسرية هي غاية في الأهمية لَمَا في أسلوب الشرط مِن الإثارة والتنبيه ،وكأنَّه يقرع به سمع المخاطب وعقله ووجدانه ،ويحمله على الإصغاء وترقب مضمون جزاء الشرط ،مع ما فيه من الإيجاز وتكثيف المعنى ،وهو بناء لغوي يضم في ثناياه التفاعل بين المخاطِب بكسر الطاء والمخاطَب بالفتح ،وكأنَّه أداة مِن أدوات الحِوار .

فأسلوب الشَّرط كغيره مِن الأساليب الإنشائية التي اتَّخذها النَّظم الحكيم طريقا لتثبيت أحكام التشريع في نفوس المكلَّفين لما يشتمل عليه من معاني الجزاء والعقاب والخُلْف والمُكافأة ،ولأنَّه ينفذ إلى نفوس المكلَّفين بيُسر وسُهولة فتتلقاه بمزيد عناية واهتمام .

مفهوم أسلوب الشرط يعني : " تعليق شيء بشيء، بحيث إذا وجد الأول وجد الثاني، وقيل: الشرط: ما يتوقف عليه وجود الشيء، ويكون خارجاً عن ماهيته، ولا يكون مؤثراً في وجوده، وقيل: الشرط: ما يتوقف ثبوت الحكم عليه . وفي اللغة: عبارة عن العلامة، ومنه أشراط الساعة، والشروط في الصلاة، وفي الشريعة عبارة عما يضاف الحكم إليه وجوداً عند وجوده لا وجوباً " [1]

ولأسلوب الشرط عامة مزية في بناء الكلام حيث إنه يمزج بين المعاني ويربط بينها برباط وثيق ،ويجعل الجمل في دلالته بمثابة المفردات في الجمل غير الشرطية[2] وأنَّ حكم جملتي الشرط والجزاء في الكلام" حكمُ جملة واحدة، من حيث دخل في الكلام معنًى يربط إحداهما بالأخرى، حتى صارت الجملة لذلك بمنزلة الاسم المفردِ في امتناع أن تحصل به الفائدة، فلو قلت: إن تأتني وسكتَّ، لم تفدْ، كما لا تفيد إذا قلت: زيد وسكتَّ، فلم تذكر اسماً آخر ولا فعلاً، ولا كان منويّاً في النفس معلوماً من دليل الحال"[3]

كما يظهر لأسلوب الشرط مزية أسلوبية أشار إليها الراجحي ـــ رحمه الله ـــ في قوله : " في أسلوب الشرط طاقة بلاغية وشحنة قوية من إثارة الانتباه والترقب والانتظار ، والتطلع إلى مجئ جواب الشرط بعد استرسال النفس في إدراك معاني فعل الشرط في أول الجملة الشرطية ، فلا تزال النفس مندمجة في تأمل معنى الشرط وفعله وجملته متأنية متفهمة واعية له في تأمل وانتظار لمجئ جوابه ، حتى إذا ما وصلت إلى الجواب ووصل إليها الجواب بعد طول غياب وانتظار وقع منها موقع الشيء المنتظر ، فتمكن منها

---

(١) التعريفات للجرجاني-تح: إبراهيم الأبياري ص١٦٦-ط:دارالكتاب العربي -بيروت- ط: أولى-١٤٠٥ هـ

(٢) دلالات التراكيب ص ١٩٩

(٣) أسرار البلاغة للإمام عبد القاهر الجرجاني- تعليق:د.محمدعبدالمنعم خفاجي ص١٦٣-ط:مكتبة الإيمان-القاهرة.

فضل تمكن ، وقر فى أعماقها أى قرار . نعم إن الجملة الشرطية ـــ كما يؤخذ من كلام النحاة والبلاغيين ـــ جملة دسمة عجيبة تجمع بين أمرين بينهما تضاد ، فهى إنشائية فى صدرها ؛لأن الشرط إنشاء لا محالة كالنداء والقسم والتعجب والعقود ، وكل ما ليست له نسبة خارجية يتوجه إليها الصدق والكذب ، ثم هى بعد ذلك فى شرطها تكون خبرية فى جوابها ،حتى وإن كان فى الجواب طلب فيكون ملخصها أن جوابها واقع عند حصول شرطها ، ولعلها من أجل ما فيها من هذه الطاقة البلاغية النفسية كثر ورودها فى كثير من فواتح سور القرآن لتكون براعة استهلال تستقطب الانتباه وتستحوذ على المشاعر لتفتح لها الطريق إلى ما بعدها من آيات السورة الكريمة " [1] .

يتَّسم بناء الشَّرط فى بناء سورة الطلاق بالتنوع ،فلم يجرِ الأسلوب على طريق واحد ،إذ لكلِّ أداة مقام يناسبها ،فتارة يتصدر بأداة الشرط ( إذا ) وقد ورد ذلك فى موضعين : الأول : قوله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُواْ ٱلْعِدَّةَ﴾ ،والثانى قوله تعالى :﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ ،وتارة أخرى يكون بأداة الشرط ( إن ) وقد ورد ذلك ثلاث مرات فى قوله ﴿وَإِن كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُواْ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۖ وَأْتَمِرُواْ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ ۖ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ﴾ ،لكن كان أسلوب الشرط المصدر بالأداة ( مَنْ ) أكثر الأساليب شيوعا ، حيث تكرر سبع مرات فى قوله تعالى :﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾ وقوله تعالى : ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ﴾ وقوله تعالى : ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾ وقوله تعالى : ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا﴾ وقوله

(١) راجع:مجلة الوعى الإسلامى ـــ عدد (٢٧٣) ١٤٠٧ هـ ـــ ١٩٨٧ م ـــ موضوع بعنوان :( مع سورة الواقعة دراسة وتحليل فاتحة السورة ) للدكتور / عبد الغنى الراجحى ص ٧٤ .

تعالى : ﴿ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ﴾ومرجع هذا التنوع هو مراعاة النظم الحكيم للفوارق الدقيقة بين دلالات أدوات الشرط ،وأنّ لكلّ أداة خاصية تميّزها ، فدلالة ( إذا ) لا تؤديها ( إنْ ) ،ودلالة ( مَنْ ) لا تستفاد أبدا من ( إذا ) أو ( إنْ ) ،وهو ما أكّده ضياء الدين بن الأثير ـــ رحمه الله ـــ بقوله : " واعلم أيُّها المُتوشِّح لمعرفة علم البيان أنّ العُدُول عن صيغة مِن الألفاظ إلى صيغة أخرى لا يكون إلا لنوع خصوصية اقتضت ذلك ، وهو لا يتوخّاه في كلامه إلا العارف برموز الفصاحة والبلاغة الذي اطّلع على أسرارهما ، وفتّش عن دقائقهما ، ولا تجد ذلك في كلِّ كلام، فإنّه مِن أشكل ضروب علم البيان، وأدقّها فَهماً، وأغمضها طريقاً".[1]

فقد عنى البلاغيون عناية فائقة بالفوارق الدقيقة بين هذه الأدوات رغم التقائها جميعا على معنى تعليق شيء بشيء ،والتي أحسن النظم الكريم انتقاء كل أداة في موضعها الملائم للسياق ووظّفها توظيفاً بديعاً يخدم المعنى والغرض الذى سيق أُسلوب الشرط لأجله .

وقف الخطيب القزويني على البون الدقيق بين دلالة ( إذا ) ودلالة ( إنْ ) الشرطيتين فقال: " ( إن ) و( إذا ) للشرط في الاستقبال ،لكنهما يفترقان في شيء وهو الأصل في أن لا يكون الشرط فيهما مقطوعاً بوقوعه كما تقول لصاحبك إن تكرمني أكرمك وأنت لا تقطع بأنه يكرمك، والأصل في ( إذا ) أن يكون الشرط فيهما مقطوعاً بوقوعه كما تقول: إذا زالت الشمس آتيك، ولذلك كان الحكم النادر موقعا لأنّ النادر غير مقطوع به في غالب الأمر، وغلب لفظ الماضي مع ( إذا ) لكونه أقرب إلى القطع بالوقوع، نظراً إلى اللفظ"[2] ولذلك قال النُّحاة:لا يحسُن أن يُقال: إن احمر البسر آتيك؛لأنّ ذلك أمر سيوجد لا محالة ،وجوَّزوا استعمال (إن) فيما لا يوجد أصلاً ،يُقال في قطع الرجاء: إن ابيضَّ القار تغلبي[3] ففي قوله تعالى في مفتتح سورة الطلاق ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ

(١)المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر لابن الأثير تح : محمد محي الدين عبد الحميد ٢ / ١٢ ط : المكتبة العصرية للطباعة والنشر ـــ بيروت ـــ ١٩٩٥ م .

(٢) الإيضاح في علوم البلاغة للخطيب القزويني تح : بهيج غزاوي ص ٨٨ ط : دار إحياء العلوم بيروت ـــ ط : رابعة ـــ ١٤١٩هـ ـــ ١٩٩٨م .

(٣) ينظر : التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب للرازى ـــ ٢٨ / ٢٤٣ ـــ ط : دار الكتب العلمية ـــ بيروت ـــ ط : أولى ـــ ١٤٢١هـ ـــ ٢٠٠٠ م .

﴿ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ ﴾ ،والنداء ظاهره للنبي خاصة وهو له وللأمة ، وإيثار وصف النبوة خاصة بدل الرسالة فيه " إيماءة إلى إنبائه صلوات الله وسلامه بأمور ذات شأن " [1] وقد آثر النظم الكريم أداة الشرط ( إذا ) ؛لأن كينونة حدوث الطلاق حين تستحيل العشرة بين الزوجين ،ويدب الشقاق بينهما ،أمر متوقع ،بل مقطوع بوقوعه حيث لا معنى للعشرة بين المتنافرين ، وذكر أحد الباحثين أنّ الطلاق يقع كثيراً وخاصة في مجتمعنا المعاصر، لذلك عبر بإذا التي تفيد التحقيق ،ولم يُعبر بإن التي تفيد القلة والندرة ليتناسب الأسلوب مع واقع الناس في المجتمع[2] وقد جاء فعل الشرط (طلقتم) ومعناه أردتم ،على صورة الفعل الماضي وأريد به المستقبل للدلالة على وقوع الطلاق ،فصورة الفعل في الزمن الماضي تتلاقى مع دلالة (إذا) على الأمر المقطوع بحصوله ،وجاء جواب الشرط جملة فعلية فعلها فعل الأمر مؤكداً بالنون (فطلقوهن لعدتهن) الغرض منها الحض على امتثال التوجيهات الإلاهية ،وإبراز مدى رجاء النظم الكريم من المخاطبين لتحقق مضمون الجواب ،وهو النهي عن طلاق المرأة في حيضها قبل الطهر،لئلا يكون هناك إضرار بالمطلقة ،حيث تطول العدة ،وفي وقوع جملة الأمر (فطلقوهن لعدتهن) في صورة جواب الشرط إيحاء بأن امتثال الأمر فيه مكافأة سنية للممتثل المطيع وأي مكافأة أنفع له من تنظيم شئون حياته ،وفي فاء التعقيب تلمس حرص الشارع الشديد على ما ينبغي من المكلف فعله وكأنه أمر يجب عليه أن يكون حاضرا في ذهنه إذا أراد الطلاق. ومِن محاسنِ بناء الجواب هنا الإيجاز، وهو يتناسب مع جوّ التكليف، حيث تسأم النفس وتضيق ذرعا من كثرة التكليفات، ولاسيَّما وظاهر الخطاب للنبي الكريم .

وجاء" تكرير فعل (فطلقوهن) لمزيد الاهتمام به ،فلم يقل: إذا طلقتم النساء فلِطهرهن"[3] ،وذكر جواب الشرط سمت يعرف به أسلوب الشرط في سورة الطلاق ،حيث لم يخل شرط من جواب ،وذكر الجواب هنا أمر لازم لخلو الكلام من القرينة التي تدل عليه ،حيث جاء الشرط في مفتتح السورة الكريمة ،وفي حذفه لا يبقى للحضِّ على طلاق المرأة في وقت الطُّهر وسم ولا رسم. وذكر جواب الشرط يتلاقى مع مقصد السورة الرَّئيس الذي اتخذ مِن الحديث عن أحكام أسرية هي غاية في الأهمية وهي الطلاق والمراجعة والعدة ،وما فيها من تنظيم حكيم – سبحان من شرعه – يستقيم معه حال الناس ،وكيف لا؟

---

(١) من أسرار التعبير القرآني ـــ دراسة تحليلية لسورة الأحزاب ـــ د محمد محمد أبو موسى ـــ ص ٦ مقدمة الطبعة الثالثة ـــ ط : مكتبة وهبة ـــ ط : ثالثة ـــ ١٤٣٣ هـ ـــ ٢٠١٢ م .

(٢) الإعجاز في نص الخطاب القرآني ـــ بحث مقدم إلى مؤتمر النص بين التحليل والتأويل والتلقي ـــ د عصام العبد زهد ـــ ص ٢٩ ـــ الطبعة الأولى ـــ ١٤٢٧ هـ ـــ ٢٠٠٦ م .

(٣) التحرير والتنوير للشيخ محمد الطاهر ابن عاشور ـــ ٢٨ / ٢٩٥ ـــ ط : دار سحنون للنشر والتوزيع ـــ تونس ـــ ١٩٩٧ م

والسورة تمتد بما فيها من الحديث عن علاقات مجتمعية إلى الإيمان به صلى الله عليه وسلم ، فما أبلغ أن يكون جواب الشرط حاضراً ، حيث إن ذكره فيه من تذكير المخاطبين بخطاب الشارع الحكيم ما لا يخفى مع ما فى الأمر من الأهمية والخطورة. ويلاحظ هنا أن النظم الكريم استخدم (إذا) فى حقيقة معناها أى فى الأمر المقطوع بحصوله ،وكان لوقوعها فى صدر السورة من اللفت والتنبيه ،حيث إنّ المطالع هى أول ما تقرع السَّمع وتوقظ الوجدان.

يقول الدكتور عبد الغنى الراجحى: " وتمتاز أداة الشرط (إذا) بأنها تفيد تحقق وقوع الشرط ، وبالتالى تحقق وقوع الجواب ، ولهذا جاءت هى خاصة من بين أدوات الشرط فى هذه الفواتح ، لإفادة تحقق وقوع كل من الشرط والجواب ، فكل ما جاء فى هذه الفواتح من الشرط والجواب والمعانى التى أفادها كل منهما واقع لا محالة ، يريد القرآن بهذا الأسلوب تأكيده وتحقيقه للناس ، ليلتفتوا بصورة قوية وجدية إلى ما يريد القرآن توجيههم إليه ، من إدراك المعانى التى تنير لهم الطريق ، وتأخذ بأيديهم إلى ما ينفعهم فى العاجل والآجل ، فى الدنيا والآخرة ، والواقع أن إفادة الأداة ( إذا ) لمعنى تحقق الوقوع فى الشرط والجواب ، إنّما أتى لأنّها وإن أفادت معنى الشرط ، إلا أنّها فى أصلها تفيد معنى الظرفية ، تقول : إذا جئتنى أكرمتك ، فيكون المعنى : عند مجيئك لى يقع إكرامى لك ، فكأن المجيء مفروض ومعلوم سلفاً ، والجواب متحقق بتحققه ، وهذا المعنى لا تفيده أداة الشرط "إنْ" ولا أداة الشرط "لو" (١).

ويلاحظ هنا أن النظم الكريم عطف على جملة الجواب جملتين أخريين ﴿ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ ﴾ ،وهما متشابهتان فى تركيبهما ، فكلتاهما جملتان فعليتان ،فعلهما فعل الأمر على سبيل الترقى فى الطلب من الأدنى إلى الأعلى ،حيث بدأ الطلب بالأمر بالحض على طلاق المرأة – إن كان هناك داع – فى الطهر ثم ثنّى بإحصاء العدة (وأحصوا العدة) ،وفى التعبير بلفظ الإحصاء إشارة إلى وجوب الاهتمام والدقة بعد هذه الأيام ،حيث إنّ مدلول لفظ الإحصاء يقرب من معنى الإحاطة والحفظ الدقيق ففى اللسان: " المُحْصِي هو الذي أَحْصَى كلَّ شيءٍ بِعِلْمِه فلا يَفُوته دَقيق منها ولا جَليل ،والإحْصاءُ العَدُّ والحِفْظ ،وأَحْصَى الشيءَ أَحاطَ به ،وفي التنزيل : ( وأَحْصَى كلَّ شيءٍ عدداً ) أي : أَحاط علمه سبحانه باستيفاء عدد كلِّ شيء"(٢) ثمّ ثلّث بالأمر بالتقوى (واتقوا الله ربكم) ،ويحسُن الأمر بالتقوى فى هذا السِّياق ؛لأن تفريط المكلف واستهانته بمثل هذه الأحكام أمر متوقع فكان فى الأمر

---

(١) مجلة منبر الإسلام مجلة مصرية تصدرها وزارة الأوقاف والمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ـــ عدد شهر ذى القعدة ١٣٨٩ هـــ ١٩٧٠ م ـــ موضوع بعنوان : ( براعة الاستهلال وروعة الأساليب فى فواتح سور القرآن ) ـــ د : عبد الغنى الراجحى ص ٣٠ .

(٢) لسان العرب مادة ( ح ص ي )

بالتقوى لون من التحذير والترهيب من خطورة الغفلة وعدم التنبُّه لمثل هذه الأحكام ، يقول الطاهر: " ولزيادة الحرص على التقوى أتبع اسم الجلالة بوصف (ربّكم) للتذكير بأنه حقيق بأن يتقى غضبه "[1]،ويحسُن عندى أن يكون إتباع اسم الجلالة بوصف الربوبية الغرض منه ملاطفة المكلفين ،فيكون فى الأمر بالتقوى جمع بين الترغيب والترهيب ،حيث يجدى مع البعض الترغيب والملاطفة ،ومع البعض الآخر الترهيب والشدة فـــ " من عادته عزّ وجل في كتابه أن يذكر الترغيب مع الترهيب ويشفع البشارة بالإنذار إرادة التنشيط لاكتساب ما يزلف والتثبيط عن اقتراف ما يتلف"(٢) والملاحظ هنا أنّ الحديث عن التقوى وجزاء صاحبها فى سياق سورة الطلاق له حضور لافت فى بناء السُّورة ،حيث ورد الأمر بها فى مفتتح السورة وفى آخرها ،وجاء الحديث عن جزاء صاحبها في أثنائها ؛ذلك لأنّ التقوى هى الضمان الحقيقى للمعوز والمحتاج والمكروب ،خاصة وأنّ السورة تعالج قضية الإنفاق بشكل مفصَّل ابتداء مِن إبقاء المعتدة على اختلاف وصفها فى بيت الزوجية ،وما يستلزمه الإمساك مِن تبعات تقع على الرجل ،سواء كانت المعتدة من ذوات الحيض ،أو مِن اللائى لم يحضن ،أو أولات الأحمال ،ومرورا بالنص على توفير مأوى لها ،وختاما بالحديث عن إيتاء المعتدة المرضع أجرها ،ولا سيَّما والسورة كلّها قد بنيت تراكيبها على التأكيد على معنى الضمان وتحقيق الوعد حتَّى تأنس النفس المضطربة بموعود ربها ،ولا تخشى العوز والفاقة .

فأول ما يطالع القارئ للسورة الكريمة هو طول الجمل وكثرة توابعها ،واستعانة النظم الكريم بحروف العطف المؤذنة بالربط بين أجزاء الجملة الواحدة ،حتَّى إنَّك ترى آيات السّورة الكريمة مُتماسكة فى تسلسُل محكم ، يأخذ بعضها بعناق بعض ، وكأنَّها آية واحدة ،ولعلَّ السرَّ فى ذلك هو تلاحقْ الأحكام ،وتتابع حصول زمانها ،وارتباط بعضها ببعض ارتباطا وثيقاً فلا مناص بعد الطلاق من التطلُّع إلى معرفة أحكام العدة والمراجعة والنفقة والإرضاع وغير ذلك من أحكام .

ثم جاء عقب جملة الشرط وما عطف عليها مِن الأمر بإحصاء العدة وتقوى الله النهى عن إخراج المطلقة من بيت الزوجية ﴿ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ ﴾ وتعقيب الأمر بنهى الرجال عن إخراج المطلقات خاصَّة ،وروده مقطوعا عن سابقه بإيثار الفصل دون الوصل لإبراز ما فى الأمر المستأنف من إضافة لحكم آخر ،وفيه من تجديد نشاط السامع وتبديد فتوره ،ثمّ بمجيء نهى النساء خاصة فى صورة النفى ،ونقل الكلام مِن الإنشاء إلى

(١) التحرير والتنوير ٢٨ / ٢٩٩

(٢) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل للزمخشري ـــ تح : عبد الرزاق المهدي ـــ ١ / ١٣٣ ـــ ط : دار إحياء التراث العربي ـــ بيروت .

الخير ،وصيغة النفى هنا طوت فى معاطفها ما لا يمكن للنهى أن يصوِّره ،حيث صوَّرت صيغة النفى حال الانكسار الذى تكون عليه المرأة ،وكيف أنَّها لا تستطيع أن تقف فى وجه الرجل إذا أراد ـــ ظُلمًا وعُدوانًا ـــ إخراجها مِن مسكن الزوجية ،وكأنَّ النَّظم الكريم يُعوِّل على الرَّجل وحده حيث نهاه بصريح لفظ النهى ،ويعتبر أنَّ أمر الإخراج والإمساك بيده هو لا بيد المرأة ،فلذلك جاء نهيها فى صورة النفى لا النهى كما ترى ،أو قد يكون سر التعبير بالنفى دون النهى هو تصوير المبالغة فى مسارعة النساء إلى امتثال الأمر الإلاهى فكأنَّهن امتثلن الأمر على الفور عقب صدور التكليف "وهو أبلغ من صريح الأمر والنهي ؛لأنَّه كأنَّه سُورع الى الإمتثال والانتهاء فهو يخبر عنه"(١) وقد يكون إيثار النفى هنا دون النهى مراعاة لما يخالج المرأة دون الرجل من التردد والاضطراب فى أمر البقاء فى بيت الزوجية أو الخروج ، حيث قد يداخلها الشعور بالامتهان إن هى مكثت معتدة فى حمى الرجل وفى مسكنه ،إذ إنَّ " النفى أسلوب لغوى تحدده مناسبات القول ،وهو أسلوب نقض وإنكار يستخدم لدفع ما يتردد فى ذهن المخاطب " (٢) ودخول لا على المضارع لا يقيده بزمن على الأرجح (٣) فالنهى عن الإخراج متجدد حتَّى تنتهى عدتها ،وهذا هو سر التعبير بالمضارع المنفى بلا.

وقد وصل النظم الكريم بين قوله تعالى ﴿ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ ﴾ وقوله ﴿ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَـٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ﴾ بالواو لغرض بلاغى وهو التوسط بين الكمالين لاتفاق الجملتين فى الإنشائية معنى ،أو لكمال الاتصال حيثُ إنَّ " هذا الترتب بين الجملتين يشعر بالسببية ،وأن لكلٍّ امرأة معتدة حقّ السُّكنى في بيت زوجها مُدة العدة ؛لأنَّها معتدة لأجله ،أي : لأجل حفظ نسبه وعِرضه"(٤) وفى دلالة الوصل من ترغيب الرجال فى إمساك المعتدات ما لا يخفى ،ثمَّ تأمَّل ما فى تعريف لفظ (بيوت) بالإضافة إلى ضمير جماعة الإناث ،مِن بالغ إكرام الله لهذه المرأة المعتدة ،وكيف أنَّ الله جعلها صاحبة البيت تأنيسا لها وملاطفة وحنوّا بها ،حيث راعى النَّظم الكريم ما أحاط بها مِن أسى وحزن .

هذا ،والمنهى عنه فى الجملتين واحد وهو الإخراج ،وكان الغرض مِن تكرير الأمر المنهىّ عنه الاهتمام به ،لما فى مكث المعتدة فى بيت الزوجية من فوائد جمة تعود على الزوجين معاً ،وفيه من فرط

---

(١) الكشاف ١ / ١٨٦

(٢) فى النحو العربى نقد وتوجيه د مهدى المخزومى ـــ ص ٢٤٦ ـــ ط : دار الرائد العربى ـــ بيروت ـــ ط : ثانية ـــ ١٤٠٦ هـ ـــ ١٩٨٦ م .

(٣) ينظر : معانى النحو للسامرائى ٤ / ٢٠٦ ـــ ط : دار الفكر العربى ـــ عمان ـــ ط : أولى ـــ ١٤٢٠ هـ ـــ ٢٠٠٠ م

(٤) التحرير والتنوير ٢٨ / ٢٩٩

الرعاية وجميل النصح والإرشاد ما لا يخفى على ذى بصيرة ،وكأنَّ النَّظم الكريم يهمِس فى أذن كلّ واحد مِن الزوجين على حدة. وقد تناغم الاستثناء فى قوله تعالى﴿ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ ﴾ مع النهى عن الخروج حيث تنامى معه التصوير ،حيث أفاد الاستثناء قبح مآل الخروج ،وأنه قد يكون سبيل المرأة لإتيان الفاحشة " فيكون هذا الاستثناء منعاً لهن من الخروج على طريقة المبالغة في النهي"[1]،وهذا على طريقة تنامى المعانى وترقّيها ،حيث بدأ بمُطلق النهى ،وثنّى بالمبالغة فى النهى ،ولعل هذا الأسلوب هو الأنسب فى مقام التشريع والتكليف. ثمَّ أشار النَّظم الكريم إلى مضمون الشَّرط بقوله ﴿ وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ ﴾ وفيه مِن الإيجاز وتكثيف المعنى ما لا يُنكر، مع ما فى تعريف لفظ (حدود) بالإضافة إلى لفظ الجلالة من الترهيب والتخويف ،ثمَّ فرَّع عنه شرطاً آخر ينتظم معه انتظام حبات العقد، وكأنه خارج من رحمه ،وهو يحمل فى طيَّاته الوعيد ،فقال ﴿ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدۡ ظَلَمَ نَفۡسَهُۥ ﴾ والغرض منه الحثّ على تحقيق مضمون الشَّرط الأول ،وفى إعادة لفظ (حدود الله ) مرة ثانية فى بناء أسلوب الشرط ووضع المظهر موضع المضمر لفت انتباه المخاطب وإثارته إلى عظيم خطر التغافل عن حدود الله ،ففى غير القرآن يُمكن أن يُقال: وتلك حدود الله ومَن يتعد أو ومَن يتعداها فقد ظلم نفسه ،ثمَّ إنَّك لتكاد تعرف جزاء القسم قبل وقوْعه ،حيث إنَّ السياق قبلا فى قوله ﴿ وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ ﴾ قد أرشد إلى الجواب قبل النطق به ،وهذا لمزيد العناية بأمر الجواب ، ويلاحظ فى جواب الشَّرط أمور : منها تصديره بحرف التحقيق ( قد ) أحد وسائل التوكيد ،ثمَّ التعبير بالماضى الذى يدل على تحقق مضمون الجواب ( ظلم نفسه ) ،مع ما فى لفظ (ظلم) مِن الإشارة إلى مُجاوزة الحد ،ووضع الشىء فى غير موضعه ،وفى ذكر المفعول (نفسه) مِن تصويب سهام التوبيخ والزَّجر والتعنيف إلى نفس الآثم ذاته ما لا يخفى ،فجملة الجواب تعدُّ زاجرا ورادعا لمن ينوى انتهاك حدود الله ،فالمفردات تتضافر على إبراز وقوع مضمون الجواب وتتلاقى مع معنى الزجر والتعنيف الذى يسعى السياق إلى تصويره .

الملاحظ على أسلوب الشرط أنَّه تلاحم مع غيره من طرائق التصوير كالأساليب الإنشائية مِن الأمر والنهى والنداء ،وبان تماسك البناء ،فحين تتأمَّل الآية كأنَّك تجد للشَّرط خيوطا ممتدة فى نسيج

(١) التحرير والتنوير ٢٨ / ٣٠٢

البناء كلّه ،تجده مثلًا قد وقع جوابا للنداء فى فاتحة السورة الكريمة ،ومجىء الشرط جوابا للنداء لم يتكرَّر فى فاتحة سورة أخرى من سُور القرآن الكريم ،فلعلّ النَّظم قد آثر الجمع بين الأسلوبين فى سورة الطلاق لما فيهما من طاقة بالغة على اللفت وإثارة الانتباه ،وفى هذا تأكيد لعظم قضية العلاقات الأسرية التى تعرض لها السورة حيث تعتبر الأسرة نواة المجتمع ومفصله الرَّئيس ،وتراه كيف التحم مع الأمر رغم تتابعه ،وكيف جاء النهى متناغما مع الأمر حتَّى لترى أنَّ جملة النهى تجاورت مع النداء ،ولم تحتج لوصل بالواو ،ولم ترغب فى شىء من عناصر الربط والاقتران ،ثمَّ تأمَّل كيف جاءت جملة الخبر ( وتلك حدود الله ) رابطة لما تقدَّم من كلام ،شرطا كان أو أمرا أو نهيا أو نفيا ،ثمَّ كيف كان الشرط الثانى ( ومن يتعد حدود الله ) امتدادا للشرط الواقع فى الفاتحة ،وتأمَّل ما بين الشرطين من اتصال وتناغم ،وكيف خُصَّ الأول ببيان حقيقة تشريع أنَّ طلاق المرأة يكون فى طُهر لم تُجامع فيه ،وكيف خُصَّ الثانى ببيان جزاء المكلف إنْ اتَّبع هواه ،وتجاوز حدود الله فيما أُمر به أو نُهى عنه .

﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥ ۚ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴾ يسير الشَّرط بـــ ( إذا ) فى السُّورة الكريمة بتسلسُل وترتيب ،وتنساب معه المعانى ،وكأنَّه أسلوب مبنى على الترقّى ،ولعلّها هى عادة النَّظم الكريم فى سرد الأحكام والتشريعات المختلفة ،فتجد أسلوبى الشرط ب (إذا) هنا قد بُنى ثانيهما على أولهما ،وفى السَّرد لون من حَمل المخاطبين إلى تنفيذ التَّشريعات المختلفة فى هذا الباب من دون أن يشعروا بعناء ونصب ،فالفاء فى ( فإذا بلغن ) أفادت ربط أسلوبى الشَّرط برباط مُحكم ،وبناء الثانى على الأول الذى افتتحت به السورة الكريمة .

التشابه بين أسلوب الشرط بـــ (إذا) فى الآية الأولى والآية الثانية فى هيئة النسج والبناء متقارب ،ابتداء من كون فعل الشرط ماضيا فى الأسلوبين ،ومرورا بالفاء رابطة الجواب بشرطه ،ووقوع جواب الشرط جملة فعلية فعلها فعل الأمر فى كليهما ،ثم فى العطف على الجواب بجملتين أمريتين ،ثمَّ فى مجىء عقب الشَّرط شرطا آخر فيه الإشارة إلى العاقبة أو الجزاء ، هذه أوجه تشابه البناء بين الشرطين .

أمَّا أوجه الاختلاف فتبدو لى يسيرة ،فالشرط في الآية الثانية أكثر بناءً منه فى الآية الأولى ،حيث جاء الجواب مكونا من جملتين فعليتين ﴿ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ﴾ فى حين كان الجواب فى الأولى جملة واحدة ﴿ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ ﴾ ،كما عطف على جواب الشَّرط المفرَّع فى الثانية جملة فعلية أعقبها شرط ثالث ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥ ﴾ وهو ما خلت منه الآية الأولى .

﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ﴾ حديث النظم يوضح حكم المعتدة إذا قضت عدتها فى بيت الزوجية ،فإنَّ الشارع الحكيم يخيِّر الزوج بين أمرين اشتمل عليهما جواب الشرط : الإمساك ﴿ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ﴾ ولفظ الإمساك يصوِّر مدى حرص الشَّارع الحكيم على عودة الحياة بينهما ،إذ اللفظ يحمل مدلوله معنى القبض والصون والرعاية ، ففى مفردات الراغب " إمساك الشيء : التعلق به ،وحفظه" (١) ومن ثمَّ تجد كيف أنَّ النَّظم الكريم آثر اللفظ فى موضع أشد خطرا ،وأكثر أهمية فى قوله الكريم : ( وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ ) وكان غرضه الإيمان والحكم بما فيه ،وفى القيد (بمعروف) من الاحتراس المُبرز كيفية الإمساك ،مع ما فى التنكير من العموم ؛إذ إنَّ حقيقة المعروف أنَّه " اسم لكلِّ فعلٍ يعرف بالعقل أو الشرع حسنه " (٢) ،والمفارقة هى الجزء الآخر الذى اشتمل عليه جزاء الشرط ﴿ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ﴾ وعبَّر النظم الكريم عن حلِّ الرباط بين الزوجين بلفظ المفارقة لأنَّ " الفراق والمفارقة تكون بالأبدان أكثر " (٣) ففيه الإشارة إلى حفظ الصنائع الحسنة التى وقعت حين كانت الحياة بينهما قائمة ،والجار والمجرور يصوِّر عظمة هذا الدين فى حرصه على أن يسود المعروف بين الزوجين حتى بعد انقطاع الحياة بينهما ،والتنكير يُطْلِق هذا المعروف ،ولا يجعل له نهاية ،فالتنكير هنا يعنى وقوع المعروف بينهما على أفضل ما يكون. ثمَّ يعقب جواب الشَّرط العطف بجملتين أمريتين لا يكمُل الجواب إلا بهما ﴿ وَأَشْهِدُوا۟ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ ﴾ وهذا سمْت بناء الشرط بـــ (إذا) فى سورة الطلاق حيث تستدعى الجمل وتنادى بعضها فى تسلسُل بديع

(١) المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهانى ـــ تح : محمد سيد كيلاني ـــ مادة ( م س ك ) ـــ ط : دار المعرفة ـــ لبنان .

(٢) مفردات الراغب مادة ( ع ر ف )

(٣) مفردات الراغب مادة ( ف ر ق )

وترتيب فيه انتظام واعتدالٌ وانسجامٌ وتنادٍ لا يخفى على ذى شغف بمواطن الجمال وأسراره ،وفى إيثار جملة الأمر إيقاظ النفس لمضمونها لما فى الأمر من معنى الإلزام ،وفى تتابع جمل الأمر شحذ الهمة وحبسها إلا على مضامينها ،ففى تتابع الجمل تتوفّر عند المُستمع طاقة كبيرة لتلقى ما أمر به وامتثاله ولاسيَّما والأمر فى الآية على حقيقته ففيه استعلاء من الآمر على المأمور ويلحظ هنا أنَّ النظم الكريم راعى تقديم الأمر بإشهاد ذوى العدل على الأمر بإقامة الشهادة لله سبحانه لما بينهما من ترقٍ وتدرجٍ ،بدأ بالأيسر تخفيفا على المكلَّف ،وهذا أدعى للامتثال والخضوع ، وسبق للنظم الحكيم فى الآية الأولى أن قدَّم الأمر بإحصاء العدة على الأمر بتقوى الله للغرض ذاته ،وهنا يظهر حرص الشارع الحكيم على الرِّفق بالمكلَّفين من خلال تدرُّج الأوامر وتكليفهم بالأيسر ،حيث يكون الأمر اليسير دافعا لما هو أشقّ على المكلَّف. وقريب منه جاء قوله تعالى وهو يعدِّد وسائل تقويم المرأة إذا ظهر عليها النشوز ـــ وهو أيضا فى سياق التشريع ـــ : ﴿ وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ ۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴾ [1] ، بدأ بالعظة ،وثنَّى بالهجر ،وثلَّث بالضرب غير المبرح .

ويلحظ فى جملتى الأمر هنا تقارب بعض صيغهما (أشهدوا، الشهادة)

،وتقاربت بعض صيغ النهى فى الآية الأولى (لا تخرجوهن، لا يخرجن) ولعلَّ ذلك من جناس الاشتقاق. ويلحظ فى بناء صيغة فعل الأمر فى سورة الطلاق اطِّراد اقترانها بضمير الجماعة ،وكأنَّه ضربة لازب، لم يختلف بناء الصيغة فى واحدة منها (طلقوهن ،أحصوا ،اتقوا ،أمسكوهن ،فارقوهن ،أشهدوا ،أقيموا ،أسكنوهن ،فأنفقوا ،فآتوهن ،ائتمروا ،فاتقوا) ولعلَّ فى ذلك دلالة على أنَّ الأوامر مُخاطب بها جميع المكلَّفين على حدٍّ سواء ،وأنَّه لم يختلف من مكلَّف وآخر ، وترى معنى الجمع كذلك فى أساليب الإشارة إلى المخاطبين فتجد فى سورة الطلاق بعض الأساليب حملت معنى الجمع بذاتها ،وبعضها الآخر استفادته من دلالة المشار إليه ،وبعضها الآخر استفادته من دلالة الضمير العائد إليها ( وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ، ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ، وَٱلَّٰٓـِٔى يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ وَٱلَّٰٓـِٔى لَمْ

---

(١) سورة النساء : من الآية ٣٤

يكون لتقديم بعض صيغ الأمر على بعض دواع بلاغية أخرى مثل تقدم زمن الحصول والتقديم لعلو شأن المقدم والاهتمام به والتقديم بالشرف والفضل والتقديم بالطبع والعادة والتقديم بالداعية أو الرتبة أو السببية . راجع أساليب الأمر والنهى فى القرآن الكريم وأسرارها البلاغية ليوسف عبدالله الأنصارى فى الصفحات من ٤٢١ ـــ ٤٣١ ـــ جامعة أم القرى ـــ ١٤١٠هـ ـــ ١٩٩٠ م

تَحِضْنَ ۚ وَأُولَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ ، ذَٰلِكَ أَمْرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْ ، فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ ) .

﴿ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ﴾ جاء اسم الإشارة مشارا به إلى البعيد للإشارة إلى عظمة المشار إليه ،فضلاً عن " تميزه أكمل تميز لصحة إحضاره فى ذهن السَّامع"[1]، وفى التعبير بالكون دلالة على أن العظة مقصورة على من تأصَّلت فيه صفة الإيمان وتمكَّنت لقدمها فيه ،وفى هذا من المبالغة بشأن الأمر الواقع عليه العظة ،وهو مراجعة المرأة إذا أوشكت عدّها على الانتهاء ،أو مفارقتها ،مع الإشهاد فى الحالين ،وذلك لما يترتَّب عليه من الآثار المهمّة للحياة الزوجية ،مع ما فى عطف ( اليوم الآخر ) على الإيمان بالله من فضل عظة ونصح وإرشاد ،وفيه أيضا من توفير الاهتمام والعناية بشأن الأمر الواقع عليه النصح والوعظ ما لا يخفى .

﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ ﴾ أسلوب الشرط المصدر بالأداة (من) ختم به بناء الآية وقد جيء به لتأكيد الشرط فى صدر الآية الكريمة وتقرير مضمونه ،حيث حمل هذا الشرط عاقبة حسنة لكلّ متق يحذر حدود ربه ،فالشرط فى حقيقته خارج من رحم الشرط فى صدر الآية ،وفيه من تعميق مفهومه وترسيخه فى النفس كما هو واضح حيث حمل الشرط فى الصدر عملا ،وفى الفاصلة جزاءً فما بين صدر الآية وفاصلتها تناسب وتناغ يُمكن للدراسة القول بامتزاج أساليب الشرط وتلاحُمها مع بعضها ،وبالتأمُّل فى بناء الشرط ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴾ تجد أنّ النظم الكريم آثر أداة الشرط (مَنْ) وقد جاء فعلا الشرط والجزاء مضارعين لإفادة التجدد والثبوت مع ما فى تقديم الجار والمجرور (له) على المفعول (مخرجا) من إفادة عظم الجزاء وكونه لأجله خاصة ،وكذا رعاية الفاصلة القرآنية ، ثمّ ما فى تنكير المفعول من إفادة عظم المخرج وإطلاقه لا إلى غير حدّ ، ثمّ ما فى العطف على جُملة الجواب ﴿ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ مِن تنويع الجزاء وسعته ، ولفظة (ويرزقه) متمكِّنة فى موضعها ،مستقرَّة فى مكانها ، وفيها من تأنيس نفوس المكلفين ،وتسكين أفئدتهم ؛لأنّهم متى ضمنوا أرزاقهم لم يستنكفوا عن مراجعة المطلقات من ناحية و لم يضيقوا على المعتدات أثناء قضاء عدتهن فى بيوت أزواجهن من ناحية أخرى،

(١) الإيضاح للخطيب القزوينى ص ٤٣

وهذا الخيط تجد له امتدادا فى نسيج السورة الكريمة عند آخرها فى سياق الحديث عن جزاء أهل الإيمان فى قوله ﴿ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ﴾ وجعل النظم الكريم المخرج مِن الضيق والرزق الواسع عاقبة للتقوى هنا ؛لأنَّ الأمر الذى حكاه النظم وهو إمساك المرأة أومفارقتها بالمعروف إذا شارفت العدة على الانتهاء يطوى فى ثناياه حرجا وضيقا وكلفة تضيق بها النفس البشرية ذرعا فناسب ذلك أن يحكى الشرط فى الفاصلة وصدر الآية التى تليها جزاءً يخفف الوطء ويحمل معه البشارة والمكافأة السنية التى تضمن لصاحبها السعة ورفع الحرج وتخفيف الوطء عن كاهله ،ولأنَّ توقُّع العنت والضيم مع المرأة وارد عند حدوث الطلاق تجد النظم الكريم يتكئ على الترغيب كثيرًا مِن خلال إبراز الجزاء الذى تحمله ،فإلصاق التقوى بشأن الطلاق ؛لأنَّه "هو الشأن الذي لا ضابط فيه أحسّ ولا أدقّ مِن ضابط الشعور والضمير ، فالتلاعُب فيه مجاله واسع، لا يقف دونه إلا تقوى الله وحساسية الضمير"(١)

هذا ،وقد اقترن الشرط بشرط آخر هو ماضٍ فى حكاية العاقبة الحسنة لمن يقف عند حدود التشريع ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥ ﴾ لكن اختلف بناء جواب الشرط عما عطف عليه ،فتجد جواب الشرط جملة اسمية أفادت الثبوت والدوام ،وأبرزت عاقبة مَن يستسلم لله ،ويفوّضه شؤونه ،وتلمِس هنا ما فى أسلوب الشرط من الترغيب ،وقد وظَّفه النَّظم الكريم بحرفية بالغة الروعة فى إبراز جزاء المطيع ،بل تلمس كيف انتقل النَّظم الكريم بواسطة الشرط ب (مَنْ) مِن خاص الجزاء إلى عام الجزاء ،وكأنَّ الحكم عام ،وإنْ كان السِّياق القبلى يشير إلى أنَّ هذا الجزاء خاص بمَن امتثل حدود التشريع الخاص بمُراجعة المرأة إذا أوشكت عدّتها على الانتهاء ،أو مفارقتها ،مع إشهاد ذوى عدل فى الحالين. فالنظم القرآنى وظَّف أساليب الشرط بـــ (مَنْ) بما تحمله من معنى العموم فى مقامى الترغيب والترهيب ،وكان لها فى تصوير المراد ما ليس لغيرها مِن أدوات الشرط ،حيث خاطب الشرط عموم المكلَّفين على اختلاف أحوالهم وسوَّى بينهم ترغيبا أو ترهيبا ،وتحمل فى دلالتها تجسيم الشرط والجزاء ،ولاسيما وقد بنيت السورة الكريمة فى مجملها على حضور المخاطب ابتداء من النداء الواقع فى فاتحتها .

هذا ،والسمت المطرد فى بناء أسلوب الشرط بـــ (من) فى السورة الكريمة :هو تجاور الأساليب فى البناء وتتابعها أحيانا ،وهذا سمت خاص للشرط بـــ (من ) ،وهو سمت عام غالب لأسلوب الشرط فى السورة كلها على اختلاف أداته ،وحضور الجواب مع تنوُّعه ،فتارة يأتى جملة فعلية فعلها مضارع لإفادة التجدُّد وهذا غالب ،وقد يعطف على جملة المضارع جملة أخرى من جنس بنائها فى مقام الترغيب خاصة. وتارة يأتى جملة فعلية فعلها ماض مقرون بقد حيث يكون الغرض تأكيد تحقيق وقوع مضمون الجواب فى مقام الترهيب ،وتارة يأتى جملة اسمية لإفادة الثبوت ،وقد ورد هذا فى مقام الترغيب خاصة .

---

(١) فى ظلال القرآن لسيد قطب ٦ / ٣٦٠١

وقد ورد العطف على جملة فعل الشرط ذات الفعل المضارع فى سياق وحيد عند قوله ﴿ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ﴾ لغرض التفصيل فى وصف حال فعل الشرط (صاحب الجزاء) .

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ﴾ جاء الخبر مؤكّدا مفصولا عن الشرط ،وبينه وبين الشرط وصل داخلى ،فنسيج الشَّرط يسرى فى أجزاء هذه الجملة الخبرية أيضا ،وكأنّها ما نُظمتْ إلا تأكيدا لمضمون الشرط قبلها ،وقد استعان النظم الكريم على تحقيق مضمون الخبر بقد وحضور لفظ الألوهية ،ومجئ المسند اسم فاعل دالا على المضىّ ،وإضافة الأمر إلى ضمير ذى الجلال ،فكلّها عناصر تآزرت جميعا على تصوير ضمان الوعد ،فهذا الخبر يحسُن فى جوار الشرط قبله مع ما فى التذييل ﴿ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴾ من توفير صفة الإحاطة والتقدير للذات العلية ،هذه الصفة مِن شأنها على المكلف – إذا فهم ماهيتها – أن يستريح باله ويطمئن خاطره فيكون ذلك مدعاة إلى المُسارعة إلى امتثال حدود التشريع فيما أمر به أو نهى عنه. وقد رسم النظم الأسلوب بعناصر غاية فى الدقة تتناغى مع مقام الوعد والترغيب ،حيث جاء الأسلوب فى ثوب الجملة الفعلية المصدرة بالماضى المسبوق بحرف التحقيق للدلالة على تحقق مضمون الخبر ثم شفع الماضى بلفظ الجلالة الدال على العظمة والهيمنة والقدرة البالغة ،مع ما فى الجار والمجرور والفاصلة النكرة (لكل شىء قدرا) من الدلالة على الإحاطة والعموم ، وفعل الجعل فى الآية بمعنى أوجد فهو ينبئ عن بالغ قدرة الله وعظيم سلطانه ،حيث إنَّ اللفظ يجسِّد الشىء المجعول رغم كونه من الأمور المعنوية ،وكأنه شاخص يتراءى مع ما فى لفظ الجعل من حث المكلف على الاجتهاد حيث إن الجعل"ما يجعل للإنسان بفعله ،فهو أعمّ من الأجرة والثواب(١)

وهنا فى قوله تعالى ﴿ وَٱلَّٰٓـِٔى يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ وَٱلَّٰٓـِٔى لَمْ يَحِضْنَ ۚ وَأُو۟لَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ۝ ذَٰلِكَ أَمْرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا ۝ أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا

(١) مفردات الراغب مادة (ج ع ل)

تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُواْ عَلَيْهِنَّ ۚ وَإِن كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُواْ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۖ وَأْتَمِرُواْ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ ۖ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ﴾ [1] تنتقل السُّورة الكريمة لتفصيل مدة العدة ،وهذا التفصيل يتناغى مع التعبير عن المرأة بصيغة الجمع فى فاتحة السُّورة الكريمة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ ،وقد استعان النظم الكريم أيضًا بأسلوب الشرط ،وآثر هنا أداة الشرط (إنْ) لأنَّ " الأصل فى(إن) ألا يكون الشرط فيها مقطوعاً بوقوعه" [2] وقد استعملها النَّظم فى أصل معناها ،إذ إن فعل الشرط وهو الارتياب قد يكون ،وقد لا يكون ،وجملة الشَّرط فى قوله ﴿ وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ وَٱلَّٰٓـِٔي لَمْ يَحِضْنَ﴾ اختلف بناؤها عن بناء سابقها فقد جاء الشرط فى ثوب الخبر ،إذ وقع الشرط مسندا سبقه المسند إليه الذى جاء فى ثوب الإشارة ،ومجيئه فى ثوب الخبر جاء ملائما لمقام النزول حيث كان سبب نزول الآية إجابة عن سؤال وقع ،جاءت جملة الشرط كاشفة له ومبينة .

﴿ وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ ﴾ عبَّر النظم الكريم باللائي دون اللاتى مثلاً مع تساوى اللفظين فى الاستعمال ،لكن كان لكلٍّ لفظة خصوصية فى استعمال النظم الكريم ،حيث تجد استعمال (اللآئي) في حالتي الظِهار والطلاق خاصة التي هي ثقيلة على الإنسان ،وكأنَّها ـــ رغم جمودها ـــ متقاربة في اللفظ مع اللأي اللازم عن معناه التعب والإبطاء والاحتباس والجهد والمشقة والشدة [3] ثمَّ جاء التعبير بلفظ ( يئسن) للإشارة إلى تيقن انقطاع المحيض وعلم المرأة بذلك على سبيل الجزم لدقة الحكم المترتب عليه والمتعلّق به ،وقد جيء بالجار والمجرور فى قوله (من المحيض) لإبراز الصورة على أكمل وجه حيث لم يرد ذكر للحيض قبل هذا القيد ،فانتفاء اللازم الذهنى والقرينة التى

---

(١) جاء فى سبب نزول الآية أنه لما نزلت عدة النساء في سورة البقرة في المطلقة والمتوفى عنها زوجها قال أبي بن كعب: يارسول الله إن نساء من أهل المدينة يقلن قد بقى من النساء من لم يذكر فيها شئ، قال: وما هو ؟ قال: الصغار والكبار وذوات الحمل، فنزلت هذه الآية (واللائى يئسن) إلى آخرها ينظر : لباب النقول فى أسباب النزول للسيوطى ص ٢١٥ ـــ ط : دار إحياء العلوم ـــ بيروت .

(٢) خصائص التراكيب د محمد محمد أبوموسى –ص٣٢٢– ط:مكتبة وهبة –ط:٦–١٤٢٥هـ–٢٠٠٤ م

(٣) من تعليقات د فاضل السامرائى عبر : لمسات بيانية ( بتصرف )

تبرز مما يكون اليأس أحد موجبات ذكر القيد ،وعندى أنَّ التفصيل فى الآيات الواقعة فى سياق التشريع فى غاية الحُسن ،وفيه حفظ الأحكام مِن اللبس . ويمكن لنا أن نعتبر أن جملة فعل الشرط فى قوله تعالى ﴿ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ وَٱلَّٰٓـِٔى لَمْ يَحِضْنَ ﴾ [1] جاءت معترضة فصل بها بين ركنى الإسناد ،فيمكن القول فى غير القرآن :واللائى يئسن من المحيض من نسائكم عدتهن ثلاثة أشهر ،ويكون الشرط حينئذ غير مراد .

قال بعض أهل العلم: وقع في القرآن (إن) بصيغة الشرط وهو غير مراد في ستة مواضع (إن أردن تحصنا) (إن كنتم إياه تعبدون) (وإن كنتم على سفر) (إن ارتبتم فعدتهن) (إن خفتم) (وبعولتهن أحق بردهن في ذلك إن أرادوا إصلاحا)[2] ﴿ وَٱلَّٰٓـِٔى لَمْ يَحِضْنَ ﴾ معطوف على المشار إليه فى صدر الآية لموافقته له فى الجزاء ، وقد حذف مسنده لأنَّه دل عليه دليل ،وفى الحذف لون من الإيجاز ،ويراد منه "تحريك النَّفْس وشَغْلِهَا بالإبهام الذي يتبعه البيان، حتى يكون البيان أوقع وأثبت في النفس" [3] وفى الحذف لون من تخفيف الوطء على تلك المعتدة التى لم تحض لصغر أو لمرض. ﴿ وَأُو۟لَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ الواو استئنافية ،والخبر فى تحديد عدة الحامل والذى قدَّره الشارع الحكيم بوضع الحمل ،وفى التعبير بالحمل إشارة إلى المعاناة التى تلقاها الأم،حيثُ إنَّ "الأصل في ذلك الحمل على الظهر فاستعير للحبل بدلالة قولهم: وَسقَتْ الناقة"[4] وللتعبير بلفظ (أن يضعن ) دون (أن يلدن) مثلا إشارة هامة ،حيث إنّ الحمل اسم لجميع ما في بطنهن ،ولو قال (أن يلدن) ،لكانت عدتهن بوضع بعض حملهن ،وليس كذلك [5] ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ﴾ سمت بناء الشرط قريب من سابقه ،وقد جعل النظم الكريم هنا التيسير عاقبة للتقوى ؛لأنَّ الآية الكريمة تحكى آجال المعتدات وما فى ذلك من وجوب الالتزام بآداب الشرع الحكيم فى ذلك ،وأدناها عدم الخروج من البيت إلا لضرورة ،حتَّى إنَّ النساء المتوفى

---

(١){إنِ ارتبتم} أي إن أشكل عليكم حكمهن في عدة التي لا تحيض، فهذا حكمهن، وقيل: إن ارتبتم في دم البالغات مبلغ الإياس وقد قدروه بستين سنة وبخمس وخمسين أهو دم حيض أو استحاضة{فَعِدَّتُهُنَّ ثلاثة أَشْهُرٍ} تفسير الرازى ٣٠ / ٣٢

(٢) ينظر:الكليات لأبى البقاء الكفوى ص١٩٥-تح: عدنان درويش- محمدالمصري-ط:مؤسسة الرسالة-بيروت- ١٤١٩هـ-١٩٩٨م .

(٣) ينظر : البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها وصور من تطبيقاتها بهيكل جديد من طريف وتليد ، للدكتورعبد الرحمن حسن حَبَنَّكة الميداني ٢ / ٤٢ ـــ ط : دار القلم ـــ دمشق ـــ ط : أولى ـــ ١٤١٦ هـ ـــ ١٩٩٦ م

(٤) مفردات الراغب مادة (ح م ل)

(٥) ينظر : تفسير الرازى ٣٠ / ٣٣

عنهنَّ أزواجهنَّ قد منعن مِن الحج فى عهد عمر ـــ رضى الله عنه ـــ ،والعدة لا شك قد تكون عسيرة أيضا على بعض النساء اللواتى ينوين اللحاق بزوج آخر،فالفاصلة القرآنية فى سورة الطلاق ،والتى جاءت فى ثوب الشرط تراها "متمكنة فى موقعها ،مستقرة فى مكانها ،يتعلق معناها بمعنى الآية بحيث لو طرحت أو غيرت لاختل المعنى ،وفسد النظم ؛لأنها لم تكن مجرد حلية لفظية ،بل جزء أصيل من البناء المحكم للعبارة ،إذ هى حجر الزاوية فى ذلك البناء"[1] وهذا سمت ملحوظ فى بناء السورة الكريمة ،فبإمعان النظر فى السورة تدرك أنَّ فواصل الآيات أدَّت دورًا مهمًا فى كلّ ما أسَّست لبيانه السورة الكريمة ،وامتزجت مع عناصر البناء المكوِّنة له ،وأنَّها لم تكن حلية لفظية لتحسين الكلام فحسب ،بل استقرَّت فى مكانها فى غير نبوّ ولا قلق ولا اضطراب .

ثمَّ جاء الإخبار فى صورة الإشارة عقب الشرط للتأكيد على تحقق مضمون الجواب عند تحقق الشرط ،وفيه من تعظيم مضمون الشرط ما لا يخفى ،حيث إنَّ الإشارة جسَّدت ذلك وجسَّمته ﴿ ذَٰلِكَ أَمْرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا ﴾ ،فـ "(ذلك أمر الله) يريد ما علم من حكم هؤلاء المعتدات ،والمعنى ومن يتق الله في العمل بما أنزل الله من هذه الأحكام ،وحافظ على الحقوق الواجبة عليه مما ذكر من الإسكان وترك الضرار والنفقة على الحوامل وإيتاء أجر المرضعات وغير ذلك استوجب تكفير السيئات والأجر العظيم " [2] والإشارة " كناية عن الحث على التهمّم برعايته والعمل به وبعث الناس على التنافس في العلم به إذ قد اعتنى الله بالناس حيث أنزل إليهم ما فيه صلاحهم " [3]

والنسج على هذا المنوال بإتباع الإشارة الشرط ورد مرتين قبْلا ـــ وكأنَّها أى الإشارة عنصر من عناصر بناء الشرط ـــ عند قوله فى فاتحة السورة ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا۟ ٱلْعِدَّةَ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ ۖ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ ﴾ وقوله تعالى ﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا۟ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ

---

(١) التناسب البيانى فى القرآن ـــ دراسة فى النظم المعنوى والصوتى ـــ د أحمد أبو زيد ص ٣٦٩ منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط

(٢) الكشاف ٤ / ٥٦١

(٣) التحرير والتنوير ٢٨ / ٣٢٤

﴿وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَـٰدَةَ لِلَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾ فالإشارة إلى مضمون جملتى الشرط وما لحق بهما سمت تميّز به أسلوب الشرط فى سورة الطلاق ،بل إنّ الإشارة امتزجت به ومدّت خيوطها فى نسيج الشرط ،وتعاضدت معه فى تصوير عظم الأحكام ،وأنّها مِن الأهمية والخطورة بمكان ،وهنا يمكن للباحث القول بأنّ الشرط ضرب بجذوره فى أعماق الأساليب التى جاورته فى البناء خبرية كانت أو إنشائية ،وكان الرّأس لهذه الأساليب على اختلاف ألوانها. ثم تمعّن ترى كيف توسّطت الإشارة أسلوبى الشّرط ،وكيف أدّت دورها كأحد عناصر الرّبط والاقتران بين عناصر البناء ،وكيف تغذّى كلّ أسلوب مِن فيض دلالتها ، فمضمون الإشارة فى السورة الكريمة يمكن أن يتناغم مع السابق له واللاحق ،وهذا من بديع النظم الكريم. ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا﴾ لم يختلف بناء الشرط عن سابقه ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾ إلا بطول بناء جملة الجواب حيث عطف على جملة الجواب جملة أخرى حملت معها فيض الله العميم بإعظام الأجر بعد المغفرة وتكفير السيئات ،وتلحظ من خلال الشرطين كيف تنوع الأجر فكان لصاحبه نصيب فى العاجل (الدنيا)، وهذا ما حمله الشرط الأول ،ونصيب فى الآجل (اليوم الآخر) وهذا ما حمله الشرط الثانى ،ثمّ تأمّل كيف يتنامى الأجر ،وكأنّه ينمو ويربو ،فتيسير الأمر دون تكفير السيئات ،وإعظام الأجر فوق كلّ جزاء . وقد تكرّر فعل الشرط ( يتق ) فى السورة الكريمة ثلاث مرات حتّى أصبح جزءا لافتا فى إيقاع الكلام ،وذلك لمُعاودة الطّرق على أُذُن المخاطب المرة بعد الأخرى بلفت انتباهه إلى ما أعدّه الشارع مِن جزاء ترغيبًا له فى الامتثال ، وتلمسه كذلك فى مُجامعة الأسلوب فى السورة كلّها للفظ الألوهية بما تتضمّنه دلالته مِن معانى الإله الخليق بالعبادة والاستعانة والرجاء وما فيها من خلع لصفات العظمة والجلال للذات العلية .

كما أنّ وقوع الشرط فى فواصل الآيات كان له بالغ الأثر فى انطباع الجزاء فى الذهن ؛إذ إنّ خاتمة الكلام هى آخر ما تظل عالقة بسمع المخاطب وفؤاده ونفسه ،فالفاصلة هنا لها موقع جليل الأثر فى النفوذ إلى النفس ،والتأثير فى الوجدان

ثم إن دلالة التنكير فى معمول جواب الشرط وموقعه من البناء فاصلة الآيات (مخرجا ،يسرا ،أجرا) ،وكذا ما اشتمل عليه الجواب من متعلقات كالجار والمجرور الذى لم يختف أبدا ( له مخرجا ،له من أمره يسرا ،له أجرا ) وكالوصف والحال والجار والمجرور والظرف وتذييل الكلام بالخبر المحقّق فى قوله تعالى ﴿يُدْخِلْهُ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ قَدْ

﴿ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ﴾ قد تعاضدت مع مفردات تراكيب أساليب الشرط فى تصوير سعة الإنعام وغزارته ،فكلّ مفردة وظّفها النظم لتلقى بظلالها على معنى الترغيب الذى يسعى إليه سعيا حثيثا مقصود السورة الكريمة .

وفى اتّحاد فعل الشرط وتنوُّع الجزاء ما يشى بوفرة الإنعام وسعته على هذا المتّقى ،وفى تنوُّع أشكال الجزاء ما يعنى الاهتمام بشأنه والعناية بحاله ،حيث ترى هطول الإنعام عليه من كلّ جانب ،ومثل هذا التنوُّع فى الجزاء يمثل الترغيب فى أسمى معانيه وأعلى درجاته .

ثمّ إنّ مَن يتأمّل بناء الشَّرط بـــ (مَن) يجد خصوصية مميزة لكلّ شرط ـــ رغم هذا التقارب فى تركيب بناء الأساليب إلى حدٍّ كبير ـــ خُصُوصيةً وُظّفت توظيفًا جيدا يتناسب مع سياق كلّ شرط ومرامه فى تجلية أهداف النَّظم وأغراضه التى يؤسِّس لها فالشرط فى قوله ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ وقوله ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا ﴾عطف على جملة الجواب جملة فعلية والشرط فى قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾ جاء جوابه جملة اسمية تفيد الثبوت حتى يتناغى الجزاء مع مقام التوكل فتجدد التوكل يوائمه ثبوت الكفاية الربانية وهذا من عظيم الإنعام. والشرط فى قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ﴾ كثرت متعلّقات فعل الشرط ،حيث تعلق الفعل بالجار والمجرور مرتين لأن مضمون الشرط تذيل به الحديث عن أجل المعتدات ،فتلاءم طول بناء جملة الجواب مع طول أيام العدة. والشرط فى قوله تعالى : ﴿ وَمَن يُؤْمِنْ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ﴾ طال بناؤه عن غيره من الأساليب ،حيث عطف على جملة فعل الشرط جملة فعلية ،وكثُرت متعلّقات جملة الجواب ،حيث اشتملت على الجار والمجرور والوصف والحال والجار والمجرور والظرف وتذيّلت بالخبر المُحقّق ؛ذلك لاختلاف المشروط فى كلٍّ ،فالجزاء هنا معلّق على الإيمان ،فى حين كان الجزاء فى أساليب الشرط الأخرى معلّق على التقوى تارة ،وذلك فى الغالب ،وعلى التوكُّل تارة أخرى ،ولا شكَّ أنّ مقام الإيمان يعلو مقام التقوى والتوكُّل ،فالنظم القرآنى راعى مقام العمل ،حيث آثر لكلّ عمل الجزاء الذى يناسبه ،فلا شك " أن طريقة الأداء حاسمة فى تصوير المعنى ،وأنه حيثما اختلفت طريقتان للتعبير عن المعنى الواحد اختلفت صورتا هذا المعنى فى النفس والذهن وبذلك ترتبط المعانى وطرق الأداء

ربطا لا يجوز الحديث بعده عن المعانى والألفاظ كل على انفراد"[1]ثمّ إنّ معانى الإيمان والتقوى والتوكل تتلاقى عند معنى الطمأنينة وزوال الخوف وعدم الاحتياج إلى الغير ،فحقيقة التقوى"جعل النفس في وقاية مما يخاف"[2] و"أصل الأمن:طمأنينة النفس وزوال الخوف"[3] و"المُتَوَكِّل على الله الذي يعلم أن الله كافِل رزقه وأَمْرَه فيرْكَن إليه وحْدَه ولا يتوَكَّل على غيره"[4] والمعانى الثلاثة أمور قلبية تكمن فى الوجدان وكلّها تؤنس النفس ،وتريح القلب ،فهى تتناغم مع التحريض والترغيب ذاك الأمر الذى تدعو له السورة الكريمة .

﴿ أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُواْ عَلَيْهِنَّ ۚ وَإِن كُنَّ أُوْلَـٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُواْ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۖ وَأْتَمِرُواْ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ ۖ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ ﴿٦﴾ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴾

توضّح الآية الكريمة أنّ توفير المسكن للمعتدة واجب على المُطلّق ، ثمّ فصّلت فى حكم أولات الأحمال ،وبيّنت أحكام الرِّضاع بتفصيل وافٍ يتناسب مع مقام التشريع ،ولعظم الأمر تجد النظم الكريم قد آثر صيغة الأمر المؤكّدة بالنون ،لما فى توفير المسكن من فوائد جمّة تعود على الزوجين معًا ،ثمّ إنّ الأمر قد ارتبط بتذييل الآية التى سبقته ،والذى جاء فى ثوب الشرط ،حيث إن الأمر فى قوله (أسكنوهن من حيث سكنتم) قد يُحمل على أنّه "استئناف وقع جوابا عن سؤال نشأ ممّا قبله مِن الحثّ على التقوى ،كأنّه قيل :كيف نعمل بالتقوى في شأن المعتدات؟ ،فقيل: أسكنوهن مسكنا من حيث سكنتم ،أى: بعض مكان سكناكم"[5] وحينئذٍ يكون الفصل لشبه كمال الاتصال .

ويمكن أن يكون قوله ﴿ أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ ﴾" تشريع مستأنف فيه بيان لما أُجمل في الآيات السَّابقة من قوله: ﴿لا تخرجوهن من بيوتهن﴾ وقوله : ﴿أو

(١) التصوير الفنى لسيد قطب ص ٢٤٠ ط : دار الشروق .

(٢) مفردات الراغب مادة (و ق ى)

(٣) مفردات الراغب مادة (أ م ن)

(٤) لسان العرب مادة (و ك ل)

(٥) تفسير أبو السعود ٨ / ٢٦٣

فارقوهن بمعروف﴾ ،وقوله : ﴿وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن﴾ فتتزّل هذه الجمل من اللاتي قبلها منزلة البيان لبعض ، وبدل الاشتمال لبعض ،وكلّ ذلك مقتضٍ للفصل " [1] وحينئذٍ يكون الفصل لكمال الاتصال ،ولا غرو فى ذلك ،فالنّكات البلاغية لا تتزاحم .

ثمّ إنّ الآية الكريمة تزاحمت فيها أساليب الشرط بـــ (إنْ) وتتابعت فى تسلسُل وتشابك ما بينها ،وكأنّ كل أسلوب يأخذ بذيل أخيه ،فبينها لحمة قوية ،فقد جاء الشرط الأول ﴿ وَإِن كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُواْ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ حاكيا عمَّا يجب لأولات الأحمال من الإنفاق مدة حملهنَّ ،وجاء الشرط بـــ (إن) دون غيرها لحسنه فى مقام التفصيل ،فالنظم الكريم قد استعمل الأداة فى أصل معناها ؛إذ هى تستعمل فيما هو مشكوك بوقوعه أو كان نادر الحصول ،وكأنّ النظم الكريم يشير إلى انعدام حدوث الطلاق حال حمل المرأة أو قلّته ،وكأنّه أمر لا يجوز أن يقع ألبتة ،لما يلزمه من المضارّ التى تلحق بالأسرة كلّها ،بدءا مِن الزوجين ،وانتهاء بولدهما الرضيع ،وقد جاء فعل الشرط مبنيًا لما لم يُسمَّ فاعله للاختصار ،ولكون الفاعل معلوما ،وفيه تعريض بنعمة الله سبحانه أن أوجد منها الولد والمقام مقام تلطف بهذه الحامل ،وفيه أيضا الإشارة إلى أن مضمون جواب الشرط وهو الإنفاق سيحصل للمطلقة سواء علم الزوج بالحمل قبل الطلاق أو لم يعلم ،وربَّما يحمل بناء الفعل لما لم يُسمَّ فاعله فى ثناياه إيقاع اللوم على الرجل ،وأنّ حملها بسبب منه ،وفى ذلك تحريك لعواطفه ومشاعره نحوها ،فهو أبلغ فى اللوم والتندم ،ويحتمل أن يكون فى بناء الفعل للمفعول الإشارة إلى عظيم الإنعام بالحمل ،وأنّه لا يكون إلا بقدرة قادر عظيم ،وهذا أبلغ فى التذكير كما ترى، وفى بناء الفعل للمفعول بعد خطاب فاعله أو تكلّمه نوع مِن الالتفات ،قال عنه التنوخى وابن الأثير[2] وقد جاء الجواب جملة فعلية فعلها فعل الأمر لمزيد العناية بأمر الجواب ،حيث إنّ صيغة الأمر فى السورة الكريمة واردة على سبيل الاستعلاء ،والقيد فى قوله ﴿حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ إطناب أفاد تحديد الإنفاق بوضع الحمل ،وقد احترز به النظم الكريم خشية أنْ يُفهم أنّ الإنفاق على الحامل قد يطول لوقت أبعد لوجود الولد بينهما ،ولاسيَّما وقد حكى النظم قبلا أجل أولات الأحمال فى مقام الحديث عن العدَّة عند قوله ﴿ وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ ،ولطول وقت الحمل عبَّر عنه النظم بالمضارع الذى يعنى التجدُّد ،وفى إضافة الحمل إلى ضمير جماعة الإناث مزيد عناية بالأمّ ،ولاسيَّما

---

(١) التحرير والتنوير ٢٨ / ٣٢٥

(٢) ينظر : الإتقان في علوم القرآن لجلال الدين السيوطي ـــ تح : سعيد المندوب ـــ ٢ / ٢٣٣ ـــ ط : دار الفكر ـــ لبنان ـــ ط : أولى ـــ ١٤١٦هـ ـــ ١٩٩٦م

والمقام مقام تلطُّف ورعاية بها. ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۖ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ﴾ وهنا يُوصى النظم الكريم بإيتاء أجر الرّضاع ،والائتمار بالمعروف " وحقيقته ليأمر بعضكم بعضا بجميل في الإرضاع والأجر ،ولا يكون من الأب مُماسكة ،ولا من الأم مُعاسرة " [1] وجاء التعبير بالأجر ؛لأنَّ اللفظ لا يستعمل إلا فى النفع بخلاف التعبير بالجزاء مثلا [2] وهذا من بالغ الإكرام لهذه الأم ،والمقام مقام تلطُّف بها ،وقد عطف على أمر الأب بإيتاء الأجر أمر الأبوين معا بالائتمار بالمعروف ،وهذا من باب التدرج ،بدأ بأمر الواحد ،وثنّى بأمر غير الواحد ،وفى تنكير لفظ (بمعروف ) إفادة التكثير والتعظيم حتى يسع الائتمار بينهما كل حسن يعود على الولد بالخير ومن لطيف التعبير القرآنى إيقاع الإرضاع على الأب عند قوله تعالى﴿ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ ﴾ والظاهر أن يقّول فإن أرضعن لأولادكم ذلك لأنَّ الأب هو مَن يقوم على شؤون الرضيع الصغير من أجر الإرضاع وغيره ،ففى التعبير ضمان لحق المرأة المرضع ، فإنَّها متى علمت أن أجر إرضاعها عند الأب اطمأنّت ،أمَّا عند الصغير فلا. فهذا الشرط يُشيع فى بناء السورة الكريمة جوّا من العناية بالأم وبرضيعها ،ويبرز من خلاله عناية المُشرِّع الحكيم بهما ،وتأمَّل كيف كان تتابع الأوامر جزءا من بنية الشرط أحسن النظم الحكيم توظيفها ليصون هذا البناء الأسرى من الضياع وسمت بناء الشرط لم يختلف كثيرا عن سابقه ﴿ وَإِن كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ ،الأداة واحدة هى (إن) وفعل الشرط ماضيا فى كليهما ،وجاء الجواب جملة فعلية فعلها فعل الأمر لمزيد العناية والاهتمام بأمر الجواب ،لكن يبدو لى أن الأداة هنا مستعملة فى غير معناها ،إذ الغالب استعمال الأدوات فى أصل وضعها ،فعدم قبول الإرضاع أمر قليل الحصول لاسيما وقد جاء فعل الشرط ماضيا للدلالة على تحقُّق الوقوع ﴿ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَىٰ ﴾ الشرط هنا بناه النَّظم الكريم بـــ (إنْ) ،واستعملها فى أصل معناها ،وهو الأمر المشكوك بوقوعه ،وتنويع استعمالها ؛لأنَّها أم الباب ،فالمعاسرة وهى " امتناع الرجل من دفع ما تطلبه المرأة ،وامتناع المرأة من قبول الإرضاع بما يبذله الرجل ،ويرضى به " [3] أمر نادر الحصول ؛إذ إنَّ عاطفة الأبوين قد تكون مانعا لهما مِن المُعاسرة. ومجيء جواب الشرط ﴿ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَىٰ ﴾

---

(١)تفسير أبو السعود المسمى إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم٨/٢٦٣ ط:دار إحياء التراث العربي بيروت

(٢) ينظر : مفردات الراغب مادة (أ ج ر)

(٣) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن للشنقيطي ـــ تح : مكتب البحوث والدراسات ١ / ٦٥٠ ط : دار الفكر للطباعة والنشر بيروت ١٤١٥هـ ـــ ١٩٩٥ م .

في ثوب الخبر الغرض منه الاهتمام بمضمون الخبر وتهييج عاطفة المرأة وتحريك مشاعرها نحو وليدها تنفيرا لها من المعاسرة ،وفيه من التلطُّف وتخفيف الوطء عليها شفقةً بها ورحمة ،يقول الزمخشري: "وفيه طرف من معاتبة الأم على المعاسرة،كما تقول لمن تستقضيه حاجة فيتواني :سيقضيها غيرك ،تريد لن تبقى غير مقضية ،وأنت ملوم"[1] أو لعلّه أراد حكاية مضمون الخطاب فحسب من دون إثارة أو تحريك لمشاعر هذا المخاطَب وهذا يوائمه إيراد الخطاب في صورة الخبر. ويمكن أن يحمل معنى جواب الشرط على الأمر" أي: فليسترضع الوالد غير والدة الصبي"[2] فيكون في الجواب فضل عناية بالرضيع ،وفيه تعنيف للأب حيث ألزمه توفير الإرضاع للصبي. وفي تقديم الجار والمجرور على الفاعل في قوله ﴿ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ ﴾ تأنيس لنفس الأب ،وفيه الإشارة إلى قرب الاسترضاع للأب ،فلا يحزن ولا يضيق صدره ،وأنَّ ذلك بالأمر الهيِّن ،وفيه من تحذير الأم ما لا يخفى على ذي تأمُّل ،ففي الخبر تخويف للأم من فوات فرصة إرضاع ولدها ،مع ما في تقديم الجار والمجرور وتأخير الفاعل من رعاية للفاصلة القرآنية. والجار والمجرور في قوله ﴿ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ ﴾ جاء على طريقة قوله تعالى ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ﴾ فبينهما تناغ وتناد ،وجاء المجرور (ضمير الأب) بلفظ الجمع (لكم)تناغيا مع مقام الإرضاع الذي يقع بكثرة ،وبلفظ المفرد (له) تناغيا مع مقام الاسترضاع من أخرى إذا كانت المُعاسرة فهو يكون بندرة ،فالجمع والخطاب يلائمان الكثرة ،والإفراد والغيبة يلائمان القلة .

إيقاع الشرط ﴿ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ ﴾ جاء خافتا ،وقد أعان عليه تكرار حرفي السين والتاء ،وهما من حروف الهمس ،وهو يتلاءم مع مقام المعاسرة وفقدان الرضيع ثدي أمه وما يلزمه من الهزال والضعف والتهالك قبل استرضاع الوالد غير والدة الصبي. ﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴾ وهنا سبق الشرط بصيغة الأمر ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ﴾ الدالة على وجوب النفقة على الموسرعلى قدر إيساره ،وغرض النظم التفصيل لحال المنفق ،وبدأ بالموسر أولا فغير الموسر ثانيا تدليا للخطاب وهذا أوفق بمقام البذل. والمُتمعِّن هنا يرى

---

(١) الكشاف ٤ / ٥٦٣

(٢) زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي-٨/٢٩٧-ط: المكتب الإسلامي- بيروت- ط: ثالثة- ١٤٠٤ هـ

أنَّ النظم الكريم وهو يحكى ما يجب على المُوسر وما يجب على غير الموسر من الإنفاق آثر التعبير بالأمر فى جانب الموسر ،والتعبير بالشرط فى جانب غير الموسر ،ثمَّ انظر كيف جعل الغنى ينفق من سعة نفسه ،وهو ما أوحت به الإضافة (من سعته) ،وكيف تلطَّف بالفقير بأن جعل إنفاقه ممَّا آتاه الله ،وكيف قرن الشرط بخبرين يحمل ثانيهما البشارة ﴿ لا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴾ مُبالغة فى التودُّد والتلطُّف بهذا الفقير المُحتاج ،كل هذا لمواءمة حال المنفق ،فالتعبير بصيغة الإلزام تناسب الموسر ،والتعبير بالإلزام فى قالب الشرط وما يلزمه من تخفيف حدة الخطاب يناسب غير الموسر ،وهذا من لطيف التعبير القرآنى ،وحسن انتقائه للمفردات والأساليب .

جاء الأمر هنا على صورة المضارع المقرون بلام الأمر (لينفق ،فلينفق)؛لأنَّ المضارع يفيد التجدد والحدوث ،وشأن الإنفاق مما يتكرَّر ،وفى مجىء فعل الشرط مبنيا لما لم يُسمَّ فاعله إشارة إلى أنَّ حظ الإنسان من ضيق العيش أو سعته بمقادير الله وحده. أمَّا الخبر فى قوله ﴿ لا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ﴾ ففيه من تأنيس نفس الفقير ما لا يخفى ؛حيث وقعت النكرة (نفسا) – والمراد أى نفس – بعد النفى فأفادت العموم ،وأمَّا التذييل ﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴾ فحمل الوعد والبشارة ؛حيث جاء الفعل مضارعا فأفاد تجدد حدوث الجعل ،وذكر فاعل الجعل وهو لفظ الألوهية الدالّ على عظمة هذا الجعل ،فالوعد إذا نسب إلى ذى الجلال لا يكون إلا ناجزا لا محالة ،ولذا جاء الخبر عاريًا من أى تأكيد تنزيلا للخبر منزلة الشىء الثابت ،وفى التنكير إفادة التعظيم والتكثير ،فأىُّ إعسار يتلوه إيسار ،فالخبر يحمل فى جنباته كل معانى التأنيس والسلوى والترويح ،وأنَّ الإيسار واقع لامحالة. أمَّا أسلوب الشرط فى نهاية السورة الكريمة فيعرج فيه النظم الكريم ثانية على الشرط بـــ (مَن) الدالّ على العموم ،والذى وظَّفه النظم فى السورة لحكاية الجزاءات الربانية فى مقام ترغيب المكلَّف وتحريضه على امتثال الأوامر التشريعية الإلهية ،ولم يحسن بنا أن ننقل دراسة هذا الأسلوب مع دراسة أمثاله من أساليب الشرط التى عرضت فى وسط السورة الكريمة مراعاة لتسلسل المعانى والأحداث والأفكار ،وعرضها كما حكاها النظم الكريم ﴿ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ

وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ﴾ واللافت للانتباه هنا أنّ النظم الكريم فى عرضه لتشريعات هذا الكيان الأسرى تجده متكئا على الترغيب فى الأعمّ الأغلب فصور الجزاء الترغيبى غلبت صور الترهيب فى السورة الكريمة ؛ذلك لأنّ التلاعب والاحتيال مجالهما فسيحان فى هذا الشأن ،والله سبحانه وتعالى عالم بما تنطوى عليه حال النفس البشرية وما هو يصلح لها فكان الترغيب الذى تتقوم به كثير من عوج النفوس ،ثم انتقل إلى الترهيب ،ثمّ هو هنا يعود لما ابتدأ به أولا فعرج على الشّرط الذى لم يوظّفه النظم إلا فى مقام الترغيب خاصّة ، وقد جاء الترغيب عقب التهديد الشديد فى قوله ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾وعقب التحذير من مصير المخالفين ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾،

وفى عطف الشرط على الأمر "دلالةعلى أن ذلك نعيم مقيدحصوله لراغبيه بأن يؤمنوا ويعملوا الصالحات"[1]

والترغيب هنا جاء مصاحبا للتذكير بنعمة إرسال سيدنا محمد وما معه من الآيات البينات التى تخرج صاحبها من الظلمات إلى النور ،وسمت بناء الشرط هنا لارتباط الجزاء بفعل الإيمان اختلف عن بناء سابقه حيث تكون فعل الشرط من جملتين يرتبط تحققهما بتحقق الجواب فإن تحقق الإيمان والعمل الصالح ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾ تحقق مضمون الجواب ﴿ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ﴾ وقد اتّكأ النظم الكريم فى بناء الشرط على الجملة الفعلية لإفادة تجدُّد الحدوث ،ثمّ إنّه فى بناء الجواب أعقب جملة الجواب بوصف الجنة﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ ووصْف الجنة يبرز حُسن ما أعدَّ الله لأهل الإيمان ولا سيَّما و"وصف الجنات بـــ (تجري من تحتها الأنهار) لبيان منتهى حسنها ،وجَرْيُ النهر مستعار لانتقال السيْل تشبيهاً لسرعة انتقال الماء بسرعة المشي " [2]،مع ما فى المضارع من الإيماء بأن

(١) التحرير والتنوير ٢٨ / ٣٣٨

(٢) التحرير والتنوير ٣٠ / ٤٨٦

جرى الأنهار لا انقطاع له ،ومن ثمّ يضفى الوصف على الجزاء كمالا ،وقد جاء الموصوف (جنات) منكرا لغرض التكثير وهذا من فيض الإنعام ،ثم إن وصف حال المؤمن بقوله (خالدين فيها) بلفظ الجمع بالحمل على المعنى ينبئ عن كثرة الداخلين فيها ،مع ما فى التعبير باسم الفاعل من الدلالة على ثبوت الوصف ،وهو الخلود فى الجنة ،جاءَ في تفسير الفخْر الرازيّ أنّ " اسم الفاعل يدلّ في كثير من المواضع على ثُبوت المصدر في الفاعل ورُسُوخه فيه، والفعل الماضي لا يدلُّ عليه ، كما يُقال : فلان شرب الخَمر ، وفلان شارب الخمر ، وفلان نفذ أمره، وفلان نافذ الأمر، فإنَّه لا يُفهم من صيغة الفعل التَّكرار والرّسوخ، ومِن اسم الفاعل يُفهم ذلك"[1] ثم إن الظرف (أبدا) أفاد أن الجنة مسكن أهل الإيمان الذى لا يخرجون منه ألبتة ،ثم جاء التذييل ﴿قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا﴾[2] بالإفراد على حمل الكلام على لفظ (من) تنبيها إلى أن هذا الجزاء حاصل لكل آحاد المؤمنين زيادة فى تأنيس النفوس وترغيبها فى الإيمان والعمل الصالح ،مع ما فى الحمل من تلوين الخطاب ،وقد استعان النظم فى بناء التذييل بـــ (قد) الدالة على تحقق ما دخلت عليه وهو إحسان الرزق للمؤمن ،وذكر فاعل الإحسان وهو لفظ الألوهية يشى بعظمة الإحسان عظمة تليق بذات الجلال ،ثم إن الجار والمجرور (له) يشى بأن هذا الإحسان عطية خالصة لأجل هذا المؤمن ،وفى التنكير (رزقا) إشارة إلى تعظيم أمر هذا الرزق وتكثيره ،والتذييل "فيه معنى التعجُّب والتعظيم لما رزق المؤمن من الثواب"[3] وهنا تلمس كيف اتَّجهت مفردات التذييل نحو التأكيد على ضمان هذا الوعد ،بالتأكيد تارة ،وبالمضى تارة ،وبحضور لفظ الألوهية تارة ،وبجعل الوعد خالصا لأجل الموعود تارة، وبالتنكير تارة أخرى، ومن خلال هذا كله يبرز عظيم العطاء وعميم الفضل.

ثمّ إنّ النظم الكريم استأنف عقب الشرط بالخبر الكونى الهائل الذي يرسم كيف كانت قدرة الله سبحانه فى خلق السموات والأرض ،مرشدا إلى عظمته التى يجب على العباد طُرًّا أن يتقوه ،وأن يمتثلوا أوامره ،وأن يقفوا عند حدوده فلا يتعدوها ، وأن يعلموا أن قدرته لا تحد بحد ،وهذا يعنى بالغ العناية بالكيان الأسرى عناية استدعت التذكير بهذا الخلق الكونى البديع ،والذى أبرز النظم فى غير هذا المقام أنّه أكبر من خلق الإنسان ،فقال هنا فى خاتمة السُّورة الكريمة : ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ

---

(١) تفسير الرازي ٢٥ / ٢٧

(٢) { قَدْ أَحْسَنَ اللهُ لَهُ رِزْقاً } قال الزجاج : رزقه الله الجنة التي لا ينقطع نعيمها ، وقيل : { رِزْقاً } أي طاعة في الدنيا وثواباً في الآخرة . ينظر : تفسير الرازي ٣٠ /٣٦

(٣) الكشاف ٤ / ٥٦٤

﴿ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ وهذا الاستئناف امتداد لمضمون الشرط الذى سبقه ،فكأنّ النظم يرشد إلى أنموذج مشاهد يحمل الناس على الإقرار بعظمة هذا الخالق الناجز وعده ووعيده ،فالخبر يحمل فى ثناياه معنيى الترغيب والترهيب ،فالخاتمة ألقت بظلالها على معانى السورة كلها ،تغذى الشرط وغيره من الأساليب الخبرية والإنشائية من هذه الخاتمة البديعة التى جاءت فى ثوب الخبر المستأنف للدلالة على أهمية الخبر الذى يجب على المخاطب أن يتلفت له بعناية شديدة ،فإثارة الانتباه عرضت فى فاتحة السورة من خلال النداء بـــ (يا) والشرط ،وعرضت فى الخاتمة من طريق الاستئناف بالخبر المرشد إلى حقائق كونية جديرة بالنظر والتأمل ،ولعلّ هذا لون من تلاؤم المطلع والخاتمة. وجاء المسند فى ثوب الصلة ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾ للدلالة على تأصّل صفة القدرة فى الذات العليَّة ،وأنّ أشهر أوصاف الألوهية هى خلق السموات والأرض ،وفيه "تشويق السامع إلى الخبر ليتمكّن فى نفسه " [1] وهذا أبلغ من تمكين الخبر بالمؤكّدات الملفوظة ،حيث أوهم الخبر أنّ مضمونه معلوم لدى المخاطب ،وأنّه أمر لا ينكره أحد. وبدأ بقوله ﴿ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ وثنّى بقوله ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ ترقيا من الأدنى للأعلى ،فالقدرة دون الإحاطة ،أو لشرف القدرة على الإحاطة فى هذا المقام ،أو لأنّ وصف الذات العلية بالقدرة ترغيب ،ووصفها بالإحاطة المقتضية للعلم ترهيب ،والمقام أدعى للترغيب أولا. هذا، وتنوُّع استخدام النظم الكريم لأدوات الشرط (إذا،من،إن) فى سورة الطلاق يعكس ما اتّسم به أسلوبه البليغ من التفنُّن البديع ،والدِّقة التى لا توصف فى انتقاء المفردات والأساليب ،والتى تتواءم مع تنوع المقامات رغم كثرتها ،فهو فى كل موضع ينتقى الأنسب والأليق بالسياق مفردة كانت أو أسلوبا ،ومَن يطالع النظم الكريم يجده كيف وظّف الأداتين فيما يوائمهما رغم اجتماعهما فى موضع واحد ففى قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (سورة الأعراف : الآيتان ١٣٠ ،١٣١ ) تأمل كيف انتقى الأداة التى توائم المقام ،ففى

(١) بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح لعبد المتعال الصعيدى ١ / ٦٧ – ط :مكتبة الآداب – ١٤٢٠ هـــ – ١٩٩٩ م .

التسهيل: " إن قيل: لم قال :إذا جاءتهم الحسنة بـــ (إذا) وتعريف الحسنة ،وإن تصبهم سيئة بـــ (إن) وتنكير السيئة ؟ ،فالجواب :أن وقوع الحسنة كثير ،والسيئة وقوعها نادر ،فعرَّف الكثير الوقوع باللام التي للعهد وذكّره بـــ (إذا) ؛لأنها تقتضي التحقيق ،وذكّر السيئة بـــ (إن) ؛لأنها تقتضي الشكّ ،ونكّرها للتعليل" (١) وللجهل بموقع (إن) و(إذا) يزيغ كثير من الخاصّة عن الصَّواب ؛فيغلطون ،ألا ترى إلى (عبد الرحمن بن حسان) (٢) كيف أخطأ بهما الموقع في قوله يخاطب بعض الولاة ،وقد سأله حاجة ؛فلم يقضها ،ثم شفع له فيها فقضاها :

ذُمِمتُ و لم تُحمَد وأدركتُ حاجتي ∴ تولّى سواكما أجرها واصطناعَها

أَبى لَكَ كَسبَ الخَيرِ رَأيٌ مُقَصِّرٌ ∴ وَنَفسٌ أَضاقَ اللَهُ بِالخَيرِ باعَها

إِذا هِيَ حَثَّتهُ عَلى الخَيرِ مَرَّةً ∴ عَصاها وَإِن هَمَّت بِشَرٍّ أَطاعَها

فلو عكس لأصاب (٣)؛لأنّه قطع على سبيل الجزم ،من خلال التعبير بـــ (إذا) التي تستخدم فيما هو مقطوع بحصوله ،بأنّ نفس هذا المخاطب سوف تعصى صاحبها إن حثّها على فعل الخير ،مُبالغة في الذمّ والزّجر والتوبيخ ،مع أنّ قضاء الوالي لمسألة الشاعر بعد الشفاعة يُكذّب ذلك. لقد عرض الخطاب القرآني للقضايا التشريعية في سورة الطلاق من خلال أساليب بلاغية استطاع ـــ بحسن سبكه وبديع تركيبه وجميل معناه ـــ أن يقدّمها للمُخاطَب المعنيّ بالخطاب بطريقة هي أدعى للقبول والامتثال والإقناع والتأثير،راعى فيها حال المخاطب ،وراعى فيها الحال العصيب الذي تتنزل فيه هذه الأحكام ؛ إذ إنّ لكل مقام تشريعي مقالا من الخطاب يناسبه فتراه مرغبا حينا ،ومرهبا حينا آخر ،ولو أننا تأمّلنا خطابات التشريع في النظم القرآني الكريم لوجدنا لها سمتا فريدا ،وهيئة مخصوصة تراعى حالها ومقامها ،فما أبدعه مخاطِبا ! وما أروعه مشرِّعا ! استعان النظم الكريم على إبراز صورة الترغيب في سورة الطلاق بأساليب بيانية سخرها لتؤدي دورها في تحقيق أهداف النظم وأغراضه ،ومنها أسلوب الشرط بصوره المختلفة والتي لاءمت مقامها ،والخبر الذي وقع في أثنائها حينا ،وفي موقع الفاصلة حينا آخر ،والذي استعان النظم على سبكه بالتأكيد والتنكير ، كما كان لبناء الجملة في ثوب المضارع الذي قام عليه بناء الجزاء في جل أساليب الشرط دور ملحوظ في هذا البناء الترغيبي فالتجدد يجعل الأحداث حية وهذا ما يناسب مقام التشريع حيث تختلف العصور وتتبدل الأزمان ،والتشريع ثابت إلى قيام الساعة ،كما تلاقى الترغيب مع أساليب الأمر والنهي التي لم تخرج عن معانيها الأصلية ،وكذا المعاني فإنها تضامت مع الأساليب البيانية وتكاتفت معها لإبراز هذا الوجه الترغيبي من مثل التذكير بنعمة الرسول الكريم وبالآيات البينات التي جاءهما ،مع ما تميزت به السورة الكريمة من طول الجمل الذي نشأ من كثرة العطف وتتابع متعلقات الأفعال والإشارة المؤدية معنى التعظيم وتتابع الأخبار المستأنفة ،ويُلمح في السورة كثرة عناصر

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل للكلبي٢/٤٢ – ط: دارالكتاب العربي- لبنان – ط: رابعة- ١٤٠٣هـــ- ١٩٨٣ م .

(٢) هو : عبد الرحمن بن حسان بن ثابت الأنصاري الخزرجي ولد عام ٦ هـــ ٦٢٧ م ،وكانت وفاته عام ١٠٤ هـــ ـــ ٧٢٢ م . ينظر: الأعلام للزركلي ٣ / ٣٠٣ ـــ ط : دار العلم للملايين ـــ ط : ١٥ ـــ ٢٠٠٢ م

(٣) ينظر : الإيضاح ص ٩٠

الربط وطرائق الاقتران والتى أوجدت لُحمة قوية بين جمل الآية الواحدة ، وبين الآية وأختها، وقد جاءت أحكام السورة متسلسلة فى ترتيب بديع، وكأنَّ هذا التسلسل وهذا الإحكام يومئ إلى قوة البناء الذى يجب أن يكون عليه الكيان الأسرى حتَّى فى المواقف الحرجة الضيقة عندما يخيم اليأس ويعم الحزن كموقف الطلاق والعدة التى قام عليه بناء السورة الكريمة .

**ثانيا : سمت التناسب [1] فى سورة الطلاق :**

التناسب أحدالسمات التي شكلت بناء سورة الطلاق كغيرها من سورالقرآن الكريم ،ويحسن درس التناسب فى سورة الطلاق من وجوه ثلاثة :الأول: تناسب معانيها مع اسمها (الطلاق أوالنساءالصغرى)،والثاني: التناسب بين أجزاء السورة الكريمة كتناسب مقصودها لمطلعها وخاتمتها وكتناسب الفاتحة والخاتمة وكتناسب الخاتمة والمقصد ،والثالث: التناسب بين أساليبها ،وهو الأهمّ ،وهو ما سيدرس مفصّلًا تحت عنوان :التناسب بين العمل والجزاء ؛لأنَّ السُّورة مبنية فى أساليبها على الترغيب فى المقام الأول ،ومِن لوازم الترغيب : ذكر العمل والجزاء ،والأولان مِن التناسب المعنوي ،والأخير مِن التناسب اللفظي .

**أولا : تناسب معانِ السورة مع اسمها (الطلاق أو النساء الصغرى) :**

أمَّا كون التناسب بين معانيها واسمها ،فيظهر بوضوح من خلال النظر العميق فى معانى السورة الكريمة ؛إذ إنَّ المتمعن لمعانيها يرى سموا ورقيا باديا من خلال حرصها الوافر على الرفق والتلطف بالمرأة من خلال الأوامر التي عرضت لها السورة الكريمة بدءا من تقييد الأمر بالطلاق بالطهر ،ثم الأمر بإحصاء العدة ﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُواْ ٱلْعِدَّةَ ﴾ ،ثم بتقييد أمرى الإمساك والمفارقة بالمعروف ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ ،ثمَّ إنَّ الأمر بالإشهاد لم يقف عند طلب شهادة ذوى عدل من المسلمين ،بل جاء الأمر بعدها على وجه السموّ بطلب إقامة الشهادة لله ﴿وَأَشْهِدُواْ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ﴾ ،ثمَّ تأمَّل سموّ المعانى فى آية الأمر بالسكن ،وكيف جاء الأمر مؤكّدا بالنون المشددة

(١)يدورمعنى التناسب فى اللغة حول معنى المشاكلة والمشابهة،يقال تناسب الشيئان:تشاكلا،والتناسب التشابه ،ويقال ناسب الأمرأوالشيءفلانا لاءمه ووافق مزاجه.ينظر:القاموس المحيط للفيروزأبادى–مادة(ن س ب)وهوعندالنويريّ (ت٧٣٣ هـ):"ترتيب المعاني المُتآخِية التي تتلاءم ولا تتنافر"ينظر:نهَايةُ الأَرَب في فُنون الأدب للنويريّ–تح: محمد مفيد قميحة–١٩٦/٣– ط: دارالكتب العلمية–بيروت–لبنان–ط:١–١٤٢٤هـ–٢٠٠٤م. وعندالبقَاعِيّ (ت٨٨٥ هـ):"علمٌ تعرفُ منه عِلَل ترتيب أجزائه،وهوسِرّالبلاغة؛لأدائهِ إلى تحقيق مُطابقة المَعاني لَما اقتضاهُ من الحَال، وتتوقف الإجادة فيه على معرفة مقصودالسّورة المَطلوب ذلك فيها،ويفيد ذلك معرفةالمقصودمن جميع جُملها"ينظر: نظم الدرر في تناسُب الآيات والسورللبقاعي–٦/١– ط:دارالكتاب الإسلامي بالقاهرة.

الباعثة فى ثناياها معنى تكرار الأمر والتشديد على الالتزام بمضمون الأمر ﴿أَسْكِنُوهُن﴾ ،ثمّ تأمّل القيد ﴿مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ﴾ بأن جعل مسكن المرأة فى نفس مسكن الرجل ،وكيف أتبع بالنهى عن مضاراة الأزواج ﴿وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُواْ عَلَيْهِنَّ﴾ حرصا من الشارع عليهن وشفقة بهنّ ،وفى التفصيل فى شأن الأزواج المعتدات ما يلفت النظر إلى ذلك ،وتأمّل معى كيف فصّل فى شأن أولات الأحمال ﴿وَإِن كُنَّ أُوْلَـٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُواْ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُواْ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ﴾ بالأمر بالإنفاق عليهن ،وجعله واجبا حتّى تضع المرأة حملها ،وفى إضافة الإرضاع للآباء دون الأبناء تلمح حرص الشارع الحكيم على العناية بحق المرأة فى أجر إرضاع أبنائها ،وهذا من سموّ التعبير القرآنى ،وإضافة الإرضاع للآباء تناسب مقام المفارقة ،وكأنّ الزوجة فى هذه الحال لا يربطها بوليدها شىء سِوى الإرضاع فحسب ،وأن الزوج وحده هو المعنى بالإنفاق على أولاده .

ثمّ إنّ قوله تعالى فى منتصف السورة الكريمة ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ قد بلغ فيه سمو المعنى غايته ،حيث رفعت الآية عن الزوج كل حرج ومشقة ،وتأمل كذلك تدرُّج المعانى فى الآية ،إذ إنّ صدر الآية لم يلزم الزوج بإنفاق معين ،بل علّق الأمر على سعته وأمَرَه بما يطيق فحسب ،وأشار كذلك الصدر إلى أن ما فى يد الزوج فضل من الله وحده ،لا دخل ليده فيه شىء ،ثم جاء قوله ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾ فى منتصف الآية بنفى التكليف ،وعبَّرعن النفس بلفظ يفيد العموم ليعمّ النفى كلّ نفس ،وجاء الوعد الإلهى ﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ فى مقام التذييل مرتبة ثالثة من التدرُّج فى سموّ المعنى ،وهو أعلاها ،ناطقا بجلول اليسر الكثير ،إذا كان هناك عسر ،آخذا بيد الفقير ،مطمئنا لنفسه حتى لا تضيق ،ولا يخيب رجاؤه ،والمعانى فى الآية الكريمة تغرس فى نفس كل إنسان معانى التوكل والاعتماد واليقين بالله سبحانه وتعالى وحده. ثمّ إنّ التذكير بنزول القرآن ورسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ،وجعله جزاء للإيمان فى أخريات السورة الكريمة ،وكذا الخبر الكونى فى الخاتمة والمبرز لعظمة الله سبحانه

فى خلق السموات والأرض ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ من أسمى المعانى التى اشتملت عليها سورة الطلاق وأعلاها سموا يتلاقى مع عظم الكيان الأسرى من وجه ويتناسب مع لازم الطلاق من وجه آخر ،فالطلاق فيه مفارقة ،وهذه المفارقة غالبا ما تكون عن كُره ،وفي هذا السّموّ في المعاني تناسب على وجه التضاد. وفى الجزء الثاني من السورة الكريمة ابتداء من أول قوله تعالى ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴾ إلخ الآيات ،تناسب يتلاقى مع الاسم (الطلاق) ؛لأنّ ذكر صور العذاب بعد ذكر ألوان الجزاء المختلفة ضرب من المفارقة ،والطلاق نوع من العلاقة التي جاءت عكس ما هو منشود في العلاقة الأولى ،فكانت مفارقة على غير المقتضى الأول .

وبإدراك هذا التناسب بين غرضى السورة الكريمة (ألوان الجزاء ،وصور العذاب) ،مع ما بينهما من تقابل ،يظهر للمتأمل الواعى تعانق معانى سور القرآن الكريم وتصافحها على الرغم مما يبدو فى الظاهر من اختلاف وافتراق. ثمّ إنّ معانى الألوهية التى انتشرت فى السورة الكريمة ،إذ " تكرَّر اسم الجلالة وضميره والإسناد إليه زهاء ثلاثين مرة " [1] من مثل الحديث عن إرادة الله وتقديره فى قوله تعالى ﴿لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴾ والحديث عن قدرته وإحاطته فى قوله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾ والحديث عن بالغ عونه لعباده وتيسير أحوالهم فى قوله ﴿ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴾ والحديث عن رحمته بعباده بإحسان رزقه إليهم عند قوله﴿ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ﴾ والنص على القدرة والإحاطة المتناهيتين فى قوله ﴿لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ لتشى بعظم القضية التى تؤسِّس لها معانى السورة الكريمة ،فحضور اسم الجلالة وما اشتمل عليه من المعانى العظيمة التى توائم مقام الألوهية وعظمتها يتناسب مع تسمية السورة بالنساء تناسبا على جهة التضاد ،فعظمة الألوهية تتناسب مع ضعف النساء ورقة ما عليه حالهنّ ،ولاسيَّما فى حال انتهاء الحياة الزوجية (الطلاق). كما يتناسب ذكر

(١) التحرير والتنوير ٢٨ / ٣٣٩

معانى الألوهية مع مقام الطلاق ذاته حيث يكون " الطلاق فى الأكثر مِن الصور ،أو فى الكل كما هو مذهب البعض مشتملا على تحريم ما أحلَّ الله " [1] فيكون حضور اسم الألوهية ومعناه زجرا للمكلفين من اقتراف الآثام والأوزار التى نهى الشارع الحكيم عنها ،وكذا من التفريط فى الأوامر التى حثَّ المكلَّفين عليها .كما أنَّ عظيم الأجر الذى حكته معانى السورة الكريمة ،والذى جاء فى ثوب الجزاء والثواب للمكلفين يتناسب مع معانى الألوهية العظيمة تناسبا على جهة التوافق ،وكأنه يشى بتلازم الأمرين معا ،وأنَّ العَصَا مِن العُصَيَّة ،وأن معانى الألوهية فى السورة الكريمة قد خلعت عظمتها على الجزاء والثواب ،وكذا أيضا على معانى العقاب الذى حكته السورة الكريمة ،حيث وصف العذاب مرة بالشدة ،ومرة بأنَّه نكر ،ووصف كذلك الحساب بأنه شديد ،والعاقبة بأنَّ فيها الخسران ،فى قوله تعالى ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ۝٨ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ۝٩ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾. هذا ،وبين تسمية السورة بـــ (النساء الصغرى) ومعانيها تناسب على أنَّ في النساء ضعفًا وهو مدعاة للظلم والتعدى وانتهاك الحق وتجاوز الحدّ وفي الإنصاف الكامل في معانيها التي احتوتها أوامرها ونواهيها تناسب على وجه التضاد وأفعال الأمر والنهى فى السورة الكريمة لها طابع يميزها ،حيث اطَّرد بناؤها على اتصال ضمير جماعة الذكور بها ،وهذا يشى بعموم التكليفات ،واستواء جميع المكلفين فى الأحكام ،وقد أتت فى الغالب مؤكَّدة بالنون المشددة للإشارة إلى تكرار الأمر ،وهذا يبعث فى صيغ الأمر والنهى الحياة والتجدد ،فتتلقاها الأجيال ،وكأنَّ الأحكام نازلة فيهم لتوّها. هذا ،وذكر لفظ (النساء) فى المطلع ،وشيوع ضمائر النسوة فى السورة ،يتَّسق مع التسمية إلى حد بعيد.

**ثانيا : التناسب بين مطلع السورة الكريمة ومقصودها :**

لقد عُنى النظم الكريم بمطالع السور الكريمة فضلا عن مطالع الآيات داخل السور عناية فائقة ،وضمَّنها الإشارة إلى مقاصد البيان القرآنى ،فجاء عن أهل العلم ما يشير إلى أنَّ "من بلاغة الكلام حسن مطلعه ،وبراعة استهلاله ،وتجويد هذا المطلع ،وتضمينه الإشارات إلى مقصود السورة " [2] وقالوا إنَّ المطالع " هى الطليعة الدالة على ما بعدها ،المتنزلة من القصيدة منزلة الوجه والغرَّة ،تزيد النفس بحسنها ابتهاجا

---

(١) تفسير الرازي ٣٠ / ٣٧

(٢) مراجعات فى أصول الدرس البلاغى د محمد محمد أبو موسى ص١٩٧ط: مكتبة وهبةط: أولى١٤٢٦ هـــ ٢٠٠٥ م. هذا،وتجدر الإشارة إلى أن الحديث عن بلاغة مطالع الآيات الكريمة يجب أن تتكاتف حوله جهود المخلصين من الباحثين فى الإعجاز القرآنى بدراسات مستقلة تبرز جمالياته ،فميدانه فسيح ،وتربته بكر ،اللهم إلا ما تناثر فى بعض كتب القوم .

ونشاطا لتلقّى ما بعدها "[1] وذكروا أنّ " فى الكلام ما له صورة يصير بها لائقا أن يكون رأس كلام ،ومفتتح قول ،ومنه ما لا يليق بالمبادى ،ولا يكون له هيأة تصلح لها ،ويجب أن يجتلب القول للمبادئ من المعدن الأول"[2] فمطلع سورة الطلاق هو قوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُواْ ٱلْعِدَّةَ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴾ وقد بدأه النظم الكريم بنداء سيدنا محمد بوصف النبوة مقام تشريفه ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ لغرض التنبيه إلى شرف الخطاب ،وبيان عظم وأهمية القضية التى يوقظ نفوس السّامعين إليها ،فيكون تلقّيهم لها بعناية واهتمام فـــ "ممّا تحسن به المبادئ أن يصدّر الكلام بما يكون فيه تنبيه وإيقاظ لنفس السامع ،أو أن يشرب ما يؤثر فيها انفعالا ،ويثير لها حالا من تعجيب أو تهويل أو تشويق"[3] وأتبع النداء بالحديث عن الحضّ على طلاق المرأة فى الطهر الذى لم تُجامع فيه ،وهذا رأس كلام ،وجذر معنى ،تتعلّق به أحكام أخرى جرى تفصيلها فى ثنايا السورة الكريمة ،فالعلاقة بين هذا الجذر وما وليه علاقة الإجمال والتفصيل ،فقد ارتبطت جميع الأحكام فى السورة به ،وقد أورده فى ثوب الشرط للمبالغة فى اللفت والتنبيه ،فالناظر يرى أنّ النّظم الكريم قد افتتح السورة الكريمة بمثيرين للانتباه والترقّب :النداء والشرط . ثمّ جاء الأمر بتقوى الله ،وهو أمر تردّد صداه فى آيات السُّورة كلّها ،وفيه من التناسب مع مقام العلاقة الأسرية بين الرجل والمرأة فى مرحلة حرجة هى مرحلة انفصال الزوج عن زوجته مقصود السورة الكريمة الرّئيس ما لا يخفى ،فحيث تنزع النفس البشرية فى حال الفراق إلى الظلم ،ومجاوزة الحد ،واشتمال أمور الطلاق فى الأعمّ الأغلب على مخالفة الطريق الذى رسمه الشارع الحكيم للبشرية تكون التقوى رادعة زاجرة ،بل إنّ المتأمّل للنظم الكريم يجده قد جعل التقوى فى ثنايا السُّورة عملا ارتبطت به الجزاءات على اختلاف أشكالها ،وكأنّه يبرز ما يترتّب عليه من آثار حميدة للمكلّفين بعد الأمر به فى فاتحة السورة الكريمة . وارتباط المقصد بالمطلع بدا واضحا منذ الكلمة الأولى فى السورة الكريمة

(١) منهاج البلغاء ص ٣٠٩

(٢) السابق ص ٣١٠

(٣) السابق نفسه ص ٣١٠

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ ،حيث نفذ المطلع مباشرة إلى ذكر أول حكم رئيس من أحكام النساء وهو الطلاق الذى ينبنى عليه ما ورد فيها من أحكام ،متَّخِذا من نداء النبى بوصف النبوة سبيلا مُعْرِبا عن عظمة شأن هذا الكيان الأسرى الذى تعرض لبعض أحكامه هذه السورة الكريمة ؛إذ إنَّ عظمة الخطاب من عِظم المُخاطَب وشرفه ،فالمطلع ارتبط بغيره من أغراض السورة وأحكامها ارتباط الإجمال بالتفصيل ،والأصل بفرعه ،فكلمة الطلاق فى المطلع هى الأمر الذى فرع خيوطا متينة فى ثنايا السورة الكريمة ،وقد بقيت هذه الخيوط مع المطلع متشابكة بصورة أو بأخرى حتَّى خاتمة السورة الكريمة .

فأما تناسب المطلع مع الخاتمة ،فحيث جاءت خاتمة السورة مقرِّرة ومؤكِّدة لما اشتملت عليه الفاتحة من وجوب الامتثال لتكليفات الشارع الحكيم بتوفير صفات الكمال على الذات العلية ،ابتداء من تبيان أنه الإله الحق الذى يجب على العباد أن يتَّقوه ،ولا يتجاوزوا حدوده التى بيَّنها لهم ،وانتهاء بإبراز وصف الذات العلية بالعلم والإرادة اللازم عنهما تدبير شؤون العباد على وفق تقديره سبحانه ،وإحاطته بما غاب عن أذهان العباد طرًّا .

فأمَّا الخاتمة فاشتملت كذلك على تمجيد ذات الله سبحانه بوصفه خالقا لأعظم معلمين كونيين يعرفهما الناس ،وهما السموات والأرض ،ثمَّ بالنص على وصفين جليلين من أوصاف الكمال الإلاهى :القدرة والإحاطة ،فمعانى الخاتمة من معانى الفاتحة ،والعلاقة بينهما علاقة تأكيد وتقرير ؛وذلك لما بينهما من تقارب فى المغزى وهو إبراز صفات الكمال على ذات الله سبحانه ،وهذا تقرير لما قال الزركشىّ فى خواتيم السُّور بأنَّها " مثل الفواتح فى الحُسن ؛لأنَّها آخر ما يقرع الأسماع ،فلهذا جاءت متضمِّنة للمعانى البديعة ،مع إيذان السامع بانتهاء الكلام ،حتى يرتفع معه تشوُّف النَّفس إلى ما يذكر بعد " [1] فارتباط الفاتحة بالخاتمة أشبه بما يحدثه رد الأعجاز على الصدور ،فمعانى الألوهية الحقة قد أمسكت بطرفى السورة الكريمة وربطت بينهما برباط وثيق .

وبين المعانى التى جاءت فى النصف الأوَّل من السورة الكريمة ،والمعانى التى وردت فى النصف الثانى منها تقابل ،حيث ضم أولها ألوان الجزاء المختلفة الذى ترتَّبت على الأعمال الصالحة كالتقوى والإيمان ،وذكر الجزاء المترتب على الإيمان عادة كلامية فى النظم الكريم ،أظن أن الغرض من اقتران الجزاء بالعمل هو ملاطفة المكلف وتحفيزه على امتثال أمر الشارع ،إذ " كلَّما ذكر الإيمان والعمل الصالح رتَّب عليها المغفرة والأجر " [2] وضمَّ الجزء الثانى من السورة جانبا من جوانب الترهيب ،حيث حكى النظم

---

(١) البرهان في علوم القرآن للزركشى ـــ تح: محمد أبو الفضل إبراهيم ـــ ١ / ١٨٢ ـــ ط :دار المعرفة ـــ بيروت ـــ ١٣٩١ هـ .

(٢) تفسير الرازي ٢٨ /٣٤

جزاء العتوّ عن أمر الله ورسوله ،ثمّ جاءت الخاتمة لتناسب الغرضين معا الترغيب والترهيب ،أو صور النعيم وألوان العذاب ،وهذا من بديع النظم القرآنى فـــ " أصل الأصول فى باب الإعجاز هو تأليفه لمعانيه ،وجمع معاقدها ،والملاءمة بينها " [1].

وإذا كان مقصد السورة الرّئيس يعالج الكيان الأسرى ،هذا الكيان الذى ينتج عنه ما يسمّى بالمجتمع ،ومن هنا كانت العناية الشديدة بالأسرة وأحوالها المُختلفة ،حتى فى حال الفراق ،ففى الخاتمة إشارة إلى أنّ عظمة هذا الكيان عند الخالق من عظمة خلق السموات والأرض فما أبلغ ما خُتمت به سورة الطلاق ! لجليل المعانى التى احتوت عليها ،حيث تركت القارئ وهو يسبح فى عالم آخر غير الذى يحياه ،وشنّفت أذنه بما يتعاظم به شأن خالقه ومدبّر شؤونه الذى يأمره وينهاه ،ومن هنا جاء تناسب المقصد مع الخاتمة . ودراسة خواتيم السور ومدى ارتباطها بالمقاصد من الأهمية بمكان ،حيث إنّ " جملة الخاتمة تستقرّ عندها المقاصد ،ويعوّل عليها غالبًا فى تنظيم ما تشعّث فى الكلام من أغراض ،وما تفرّق وسطها من سياقات " [2] فما أبلغ كلام ربنا سبحانه الذى تتشابك معانيه ،وتتعانق مبانيه ،ويتلاقى أوله بآخره ،وآخره بمقصده ،ومقصده بأوله وآخره !! . هذا ،وقد تناسب وصفا [3] سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بالنبوة فى مطلع السورة الكريمة ،وبالرسالة فى آخرها ، مع حاله عليه الصلاة والسلام ،وغرض النظم الكريم فى كل سياق منهما ،فحيث كان الغرض ابتداء تشريفه بالخطاب جاء وصف النبوة ،وحيث كان المقام مقام إنذار وتبليغ ،والتبليغ فيه كلفة ومشقة اختير وصف الرسالة ،وذلك عند قوله تعالى ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ .

---

(١) راجع : خاتمة التناسب فى تفسير الإمام الرازى ، دراسة فى أسرار الاقتران ـــ منال حامد المسعودى ص ٤٢٩ ـــ جامعة أم القرى .

(٢) السابق ص ٤٢٩

(٣) قف على ما جاء فى :مقاصد سور القرآن الكريم للباحثة سهير عيسى القحطانى ص ٦٥ تجد مضمون الكلام متقارب ،لكنا قد بسطنا القول فيه بشىء من التفصيل والتوضيح .

كما تناسب شيوع التعبير عن الذات العلية بلفظ الألوهية فى السُّورة الكريمة مع مقام تكريم سيدنا محمد عليه الصَّلاة والسَّلام وتشريفه الذى تؤسِّس له سورة الطلاق ،ومن بعدها سورة التحريم ، فـ " الألوهية منشأ لاتصافه تعالى بصفات الكمال " [1].

كما أنَّ لفظ الألوهية يقتضى وجوب الامتثال لأوامره سبحانه ونواهيه التى استدعاها مقام التشريع ،وتتناسب كذلك التسمية مع مقام الإيمان الذى تحدَّثت عنه السورة فى أولها وآخرها ،حيث إنَّ الحديث عن الإيمان يستدعى لفظ الألوهية المقتضى عظمة الإله وبسط سلطانه ،والاسم يتناسب كذلك مع معانى السورة الكريمة من مثل التقوى والتوكل والركون إليه والاعتماد عليه ،فـ " صفة الالوهية المستتبعة لسائر صفات الكمال النافية لسمات النقصان والوحدة الذاتية الموجبة لامتناع المماثلة والمشاركة بينه تعالى وبين غيره على الإطلاق " [2] تقتضى جميع المعانى التى حكتها السورة الكريمة ،سواء كانت على جهة الترغيب أو الترهيب ،أو ما جاء فى ثوب الأوامر والنواهى ،وكذا ما جاء فى السورة من مشاهد دالة على عظمته سبحانه ،ومن هنا فقد تناسبت التسمية أيَّما تناسُب مع السِّياق .

**ثالثا : التناسب بين أساليب السورة الكريمة :**

التناسب الذى نعرض له هنا هو ما يتعلَّق بالتناسب بين العمل الذى ورد فى هيئة أوامر ونواهٍ ،وبين الجزاء الذى ورد فى صورة الشرط فحسب ،فقد ارتبط بناء الجزاء فى السورة الكريمة على العمل ،حيث خصَّ النظم الكريم لكلّ عمل جزاء يناسبه ويقتضيه ،فحين يكمُل العمل ويحسن ،أو حين يشتد التكليف يأتى الجزاء موفورا ،وهذا ما يفسِّر للناظر سر تنوُّع الجزاء واختلافه فى النظم الكريم بعامَّة ،وفى سورة الطلاق بخاصَّة .ثم إنَّ مَن يتأمَّل بناء الأساليب التى عرضت للأعمال فى أناة وريث ،وكذا للأساليب التى عرضت لصور الجزاء المختلفة فى السورة الكريمة يمكنه القول بأنَّ تفاوت الجزاء ناتج من تفاوت الأعمال فى المقام الأول ،ثمَّ لاعتبارات أخرى كمقام صاحب الجزاء أحيانا على الرغم من بناء الجزاء فى السورة الكريمة على فعل التقوى ،لكن كانت إشارات التقوى متنوعة ،وهذا يعنى تنوُّع العمل واختلاف حاله .

فالتناسب سمت بُنيت عليه سورة الطلاق ،وكثرة صور الجزاء فى السورة الكريمة مرجعه أنَّ السورة قد بُنيت فى الغالب على الترغيب خاصَّة ؛لأنَّه المناسب لمقام الطلاق الذى يكثر فيه التلاعب والاحتيال .

هذا ،ولا يخلو كلامنا من تجوُّز ونحن نرتِّب الجزاء على العمل ،فالجزاء فى حقيقته فضل منه سبحانه على عباده ، فالجزاء على العمل فى حقيقته إنَّما يكون " بحسب الوعد لا بحسب الاستحقاق الذاتي " [3] والعمل " علّة للجزاء ،لكن بسبب أنَّ الشرع جعله علة له ،لا لأجل أنَّه لذاته موجب لذلك

---

(١) تفسير أبى السعود ٢ / ١٥٦

(٢) السابق ٧ / ٢٤٢

(٣) تفسير الرازي ٥ / ١٦٢

الجزاء ،والدليل عليه أنّ نعم الله على العبد لا نهاية لها فإذا أتى العبد بشيء من الطاعات وقعت هذه الطاعات في مقابلة تلك النعم السالفة فيمتنع أن تصير موجبة للثواب المتأخر " [1] ومن يطالع آيات النظم الكريم يرى كيف أصّل النظم الكريم لهذه القضية ،وهذا ما عليه أهل السنة والجماعة ،من مثل قوله تعالى ﴿ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ (الروم ٤٦ ) وقوله ﴿ وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۚ وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ (الشورى ٢٦) وقوله ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴾ (فاطر :٣٢) وقال الرازى عندها : " وهذا تصريح بأنّ الجزاء المرتّب على العمل إنّما حصل بطريق الفضل لا بطريق الاستحقاق " [2] والحديث في مثل هذا يطول بلا فائدة .

يقول الزبير الغرناطي ـــ في إجمال يحتاج إلى تفصيل واف ،وتحليل بلاغي مبسوط :" الأوامر التي دارت عليها هذه السورة وبنيت عليها ثلاثة :

الأول : الأمر بالمحافظة على إيقاع الطلاق إذا دعت إليه الضرورة في وقته لاستقبال العدة حتى لا يقع إضرار بالمطلقة بتطويل عدتها .

والثاني : الأمر بإحصاء العدة والمحافظة عليها ، وألا تخرج المعتدة من بيتها حيث وقع عليها الطلاق ولا تبيت بعيدا عنه، إلى ما يرجع إلى هذا .

والثالث : إنفاذ ما يقع الاعتماد عليه في إمساك أو مفارقة ، من حسن الصحبة والجميل العشرة إن اعتمد الإمساك أو بالإمتاع والتلطف رعياً لما تقدم من الصحبة إن عول على المفارقة .

فعلى هذه القضايا الثلاث بناء هذه السورة ، وعلي الوعظ في ذلك والتأكيد بالتزام تقوي الله والتزام ما حد سبحانه فيما ذكر . ولرعي هذه الأوامر الثلاثة ما ورد الإخبار بجزاء من اتقاه سبحانه في ثلاث كرات .

فبإزاء أول قضية من أوامر السورة قوله تعالي :﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ ﴾ ،أي في إيقاع الطلاق في محله ووقته كما أوضح صلي الله عليه وسلم في قضية عبد الله بن عمر المشهورة، " يجعل له مخرجاً " بحكمه

---

(١) السابق ١٤ / ٦٨ .

(٢) تفسير الرازي ٢٧ / ١٤١

نفسه إن لحقه ندم كما قال تعالى : ﴿ لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴾ أي من تقلب الأحوال وصيرورة البغض ودا فيجد السبيل إلى المراجعة سهلاً بالتزامه الوجه الجاري على السنة وأخذه بالطاعة فينشرح صدره بتيسير أمره ويكثر رزقه بتقوى ربه: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾

ومن يتق الله في صبره أيام العدة على ما يلزمه من نفقة وسكنى ـــ حيث يلزم ذلك وإن طالت الأيام ـــ فكأن طولها مع ما يتكلفه فيها مظنة للضجر وكَرْب النفس ، فإذا اتقى الله في ذلك ( يسر عليه ) تلك المشقة ، وقرب عليه أمرها وإن بعدت المشقة ، وآنسه في وحشتها وجعل له من أمره يسرا .

فإذا اتقى الله عند تمامها والإشراف على انفصالها ، وأخذ بالسنة ، واتقى الله فيما يختاره تعالى له ويقضيه من إمساك أو فراق ، فيلتزم المعروف إن أمسك ، ويتبع كل سيئة جرت حال طلاقه وغضبه ـــ من قبح كلام أو قصد مضرة وإن كانت بأدنى إيلام أو إساءة معاملة تنافر المجاملة والمكارمة ـــ بحسنة تقابلها وتمحوها من إظهار التندم ، وطلاقة البشر ،والإغضاء عن كل ما جرى أيام المنافرة، ويستبدل المناقشة بالمياسرة، فإذا فعل هذا واتقى الله في ذلك كفر عنه سيئاته وأعظم أجره جزاء وفاقا لأعماله في ثلاثة أحواله ،فورد بإزاء كل مرتكب في تلك الأحوال ما يناسب جزاء على تلك الأعمال .

ويشهد لما تمهد من جزاء تقوى الله سبحانه في تلك الحالات ما أفصح به ما بعد من الآيات، قال تعالى: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا۟ عَلَيْهِنَّ ۚ وَإِن كُنَّ أُو۟لَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا۟ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ إلى قوله سبحانه : ﴿ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴾ ، وتأمل جَرْي هذه الآيات والوصايا الجليلة وما تشير إليه من الإشفاق وجميل التحمل والإنفاق ـــ مع ما تقدم ـــ تجده جارياً على أوضح التناسب وأجلّ الالتئام ، والله أعلم بما أراد " [1]

ولأنّ المخاطَب في السورة الكريمة واحد وهو النبي ـــ وإن كان ظاهر الخطاب له صلى الله عليه وسلم وباطنه له ولأمته ـــ فإن الباحث يكاد يجزم أن النظم الكريم في السورة راعى في الجزاء مقام العمل

(١) ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل للإمام أبي جعفر بن الزبير الغرناطي ٢ / ٤٧٨ ـــ ط: دار الكتب العلمية ـــ بيروت . وينظر كذلك طبعة دار النهضة العربية ـــ بيروت ٢ / ٩٠٧ ـــ بتحقيق د محمود كامل أحمد .

فحسب ،وجعله مناط التفاوت والتفاضل ،ولكن تجدر الإشارة أنه راعى فى الجزاء ذاته مقام المخاطب وحاله ولو أنّ المنادى فى فاتحة السورة غير النبى عليه الصلاة والسلام كأهل الإيمان مثلا لاختلف الجزاء لا محالة ،فمقام النبوة يباين بلا شك مقام أهل الإيمان ومن هنا تجد للجزاء مذاقا خاصا حيث تجده وقد جعل الجزاء لأجله خاصة من خلال التعبير بالجار والمجرور (له) والذى له حضور لافت فى بناء أساليب الجزاء ،وكذا فى التعبير بالتنكير الذى يوسع دائرة العطاء إلى أبعد مدى ،مع ما فى حضور ما يدل على الألوهية فى بناء الجزاء فى السورة الكريمة من الإيحاء باستحضار عظمة ذى الجلال وما يلزم من وراء استحضاره من الإيحاء بعظيم العطاء وسعة الإيتاء ،فلفظ الألوهية يخلع على الجزاء عظمة ويفيض عليه جلالا يليق بذاته سبحانه .

فالعمل الذى ارتبط به جزاء فى فاتحة السورة الكريمة عند قوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا۟ ٱلْعِدَّةَ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ ۖ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴿١﴾ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا۟ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴾

يتمثّل فى الأمر بإيقاع طلاق المرأة فى طهر لم تجامع فيه ،وفرّع النظم عنه الأمر بإحصاء العدة والنهى عن إخراج المعتدة من بيت الزوجية ثم الأمر على جهة التخيير بالإمساك أو المفارقة قرب بلوغ المرأة عدتها مع الإشهاد على الأمرين الإمساك أو المفارقة ،وقد تتابعت الأوامر حينا ،وأُعقبت بالنهى والنفى حينا آخر ،والناظر لصيغ الأمر والنهى يجد أكثرها قد جاء مؤكدا بالنون للإشارة إلى تجدد الأمر عند حدوث الفعل ،وأنّه أمر لازم فى ربقة العبد لا ترفع عنه كلفته بأىّ حال من الأحوال ، وأسندت جميع أفعال الأمر إلى ضمير جماعة الذكور تنبيها إلى أنّ الخطاب للعامة جميعهم ،وهذا يخلع على صيغ الأمر

شيئا من العناية والاهتمام ،وفيه إيماء إلى حدة التكليف المنوط به جماعة المكلفين ،مع ما فيه من الإشارة إلى أنّ الشارع الحكيم إنّما ينظر إلى المكلّفين بعين المساواة . ثمّ إنّ النّظم الكريم فى أثناء بنائه لأساليب الأمر والنهى أوقع فى أثنائها معانى الترهيب والتخويف قصدا إلى ردع المخاطب وتحذيره من مآل التقصير والمخالفة من مثل قوله سبحانه ﴿ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ﴾ وقوله ﴿ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ﴾ وهذا يُشير إلى أنّ وقع الخطاب لم يكن سهلا على المُخاطب المكلّف ،بل حمل معه معانى الزّجر والرّدع والتعنيف والتخويف ،وفى هذا ما فيه ،وفيه أيضا إشارة إلى أنّ الأوامر يجب أن يتلقّاها المُخاطب بعناية واهتمام .أمّا الجزاء فتلاقى مع العمل ،فحيث جاء العمل مؤكّدا بالنون المشددة الدالة على تكرار الفعل جاء الجزاء فى ثوب المضارع الدالّ على تجدُّد الحدث ،ولثقل الأعمال على ظهر المُكلّف والتى صوّرها تتابُع صيغ الأمر وتعقيب الأمر بالنهى ـــ كما أشرت آنفا ـــ تنوّعَ بناء الجزاء ،حيث جاء تارة فى ثوب المضارع الدال على تجدد الحدث ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ ،وفى التعبير بالمصدر الميمي (مخرجا) دون المصدر العام (خروجا) مثلا إيذان بتحقق مضمون الشرط ،فهو إذا أبلغ وأنسب للسياق ؛ذلك لأنّ "المصدر الميمي يصور المعنى المصدري واقعاً قائماً متحققاً في الوجود ، أمّا المصدر غير الميمي فيصور المعنى مجرداً " (١) ،وورد تارة أخرى فى ثوب الجملة الاسمية الدالة على الثبوت والدوام ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥ ﴾ وكان لحضور الألوهية ثلاث مرات مرتين بالاسم الصريح ،ومرة بالضمير الحاضر ،وقع فى تصوير عظم الجزاء ،كما كان لبناء الجزاء على كونه خالصا لصاحب الجزاء من خلال إيثار التعبير بالجار والمجرور (له) دور أيضا فى تصوير بالغ لطف الله وإشفاقه بالمكلف وعظيم رعايته له ،ولعلّه راعى مقام المخاطب وهو النبى عليه السلام الذى افتتحت السورة الكريمة بمناداته وخطابه .

هذا ،وحيث تتابعت صور الأوامر والتكليفات تتابعت أيضا صور الجزاء والمكافئات ما يعنى أنّ الجزاء كان من جنس العمل ،وأنّ مشقة العمل هى التى أنتجت وفرة الجزاء وعظمته فسبحان الذى أحسن التقدير وأحكم التدبير .

---

(١) زهرة التفاسير للإمام محمد أبو زهرة ـــ ص ٦٤٧ ـــ ط : دار الفكر العربى .

هذا ،وقد كان فى الاحتراس بقوله ﴿مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ إشارة منبئة إلى عظم الجزاء وهو الرزق ،فقد آثر النظم الكريم التعبير بالاحتراس " لئلا يتوهَّم أحد أن طرق الرزق معطلة عليه ،فيستبعد ذلك ،فيمسك عن مراجعة المطلقة ؛لأنه لا يستقبل مالاً ينفق منه ، فأعلمه الله أن هذا الرزق لطف من الله ،والله أعلم كيف يهيء له أسباباً غير مرتقبة " (١)

ثمَّ إنَّ الجزاء لم يقتصر على ما جاء فى ثوب الشرط ،بل أُعقب الشرط بالخبرين المؤكدين اللذين يسرى فى نسيجهما ويدب فى أوصالهما معنى الجزاء أولهما فى ثوب الجملة الاسمية وثانيهما فى ثوب الجملة الفعلية ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَـٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾ فتأمَّل بناء الخبر الأول (إن الله بالغ أمره ) تجده كيف أضفى على الجزاء لونا من تثبيت المخاطب وتطمين فؤاده ،وكأن النظم انتقل من تصوير الجزاء إلى تصوير ما يؤكد وقوع الجزاء وتحقّقه ،حيث ارتبط الخبر بجملة الشرط قبله ،حيث وقعت "جملة (إن الله بالغ أمره) في موضع العلة لجملة (ومن يتوكّل على الله فهو حسبه) ،أي لا تستبعدوا وقوع ما وعدكم الله حين ترون أسباب ذلك مفقودة ،فإن الله إذا وعد وعداً فقد أراده ،وإذا أراد الله أمراً يسَّر أسبابه" (٢) ومِن اللافت للنظر فى بناء الخبر (إن الله بالغ أمره) إيجازه ودقته فى انتقاء مفرداته التى كان لكل لفظة منه دلالة وخصوصية ،فحرف التوكيد (إن) حقق الخبر ووكده ،ولفظ الألوهية أضفى عليه لونا من عظمته ،واسم الفاعل أضفى عليه معنى الثبوت والدوام ،والإضافة فيها الإشارة إلى الأعمال التى ارتبطت بهذا الجزاء ،فانظر كيف تعاضدت مفردات الخبر ـــ فى إحكام بديع ـــ على تصوير ناجز وعد الله حتَّى يثق العامل بموعود ربه وجزائه.أما الخبر الذي تذيَّل به الجزاء (قد جعل الله لكل شيء قدرا) فقرَّر ما أكّده الخبر قبله ،لكن ورد فى ثوب الجملة الفعلية ،وقد صدر بقد الدالة على التحقيق ،ثم بالماضى (جعل) الدال على تحقق وقوع الفعل ،ثم بلفظ الألوهية الواقع موقع الفاعل للدلالة على عظمة الفعل ؛إذ عظم الجعل من عظيم الجاعل ،ثم بالجار والمجرور (لكل شيء) الدال على إحاطة الفعل والذى ينبعث عنه سكون المخاطب لمضمون الخبر ،ثمَّ المفعول الموضح ماهية الجعل وحقيقته رغبة فى تأنيس المعنى بالخطاب ،والخبر كله " بيان لوجوب التوكل على الله تعالى وتفويض الأمر إليه " (٣) فمتى فوَّض المخاطب أمره لربه اطمأنَّ إلى موعوده العاجل كما حكاه الجزاء قبلا من توفير المخرج عند ضيق الأمر عليه وسعة الرزق والكفاية .

---

(١) التحرير والتنوير ٢٨ / ٣١٢

(٢) التحرير والتنوير ٢٨ / ٣١٣

(٣) التحرير والتنوير ٢٨ / ٣١٣

هذا ،وقد تناسب الجزاء العاجل الدنيوى مع حال المخاطب وهو المكلَّف بوجه عام ،فحال المخاطب فى هذا الظرف العصيب لا يخلو من احتياج وضيق حال ،لذا فقد ضَمِن له المُجزِى وهو الله مخرجا ورزقا من حيث لا يحتسب ،ووعده بأنَّه سبحانه كافيه بنفسه ،فأي سبيل بعد هذا العطاء الربانى يرجو؟ ومن أي شيء بعد هذا الفيض العميم يخاف ؟

ولعظم الجزاء تجد النظم الكريم قد نوَّع السبيل الذى يجب على المخاطب أن يسلكه حتى يفوز بوعد الله وجزائه ،فتراه يتَّكئ مرَّة على التقوى ،وأخرى على التوكل ،بغية تخليص العبد المخاطب من الاعتماد على الأغيار ،والركون للواحد القهار وحده ،وربَّما يكون تنويع السبيل من باب التقابُل مع العمل ،وأنَّ العمل المنوط بالمخاطب يعتمد على التقوى حينا وعلى التوكل حينا آخر ،وحينئذ يكون بعض العمل مما يُحْوِج إلى مخرج عند الضيق وسعة رزق ،وبعضه الآخر ممَّا يحوج إلى كفاية ،فيكون لكلّ عمل جزاءٌ يناسب طبيعته من ناحية ،وقدره من ناحية أخرى .

فهذا الخبر التذييلى المؤسِّس لمعنى الإحاطة الإلاهية (قد جعل الله لكل شيء قدرا) والخارج مخرج المثل ،عام فى حقيقته " لكن ذكر هذه الحقيقة الكلية هنا يربط بها ما قدره الله عن الطلاق وفترته ، والعدة ووقتها ، والشهادة وإقامتها ،ويطبع هذه الأحكام بطابع السُّنة الإلاهية النافذة ، والناموس الكلي العام ،ويوقع في الحسّ أنَّ الأمر جد من جد النظام الكوني المقدر في كل خلق الله " [1]،ولعلَّ فى عموم الخبر ما يُرشد إلى عظم الجزاء قبله .

هذا ،وعمومية الخبر تناسب مقام خطاب النبي عليه الصّلاة والسَّلام ،ويناسب كذلك عظم مقام الطلاق ،وهو يرشد فى مضمونه إلى عناية الشارع بالكيان الأسرى ،وفيه أيضا تناسب مع صيغ الأمر المسندة إلى ضمير جماعة الذكور ،والتى بنى عليها العمل ،فالعمل عام والجزاء كذلك .

وفى قوله تعالى ﴿وَٱلَّـٰٓـِٔى يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَـٰثَةُ أَشْهُرٍ وَٱلَّـٰٓـِٔى لَمْ يَحِضْنَ ۚ وَأُو۟لَـٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ۝ ذَٰلِكَ أَمْرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا﴾ أبرز فيه النَّظم الكريم عملا وجزاء ،وناسب أيضا بين العمل والجزاء ،فالعمل هنا يتمثَّل فى تكليف المخاطب وإعلانه بأجل المعتدات الذى ينبغى عليه فى أثنائه أن يحسن المعاشرة والإنفاق عليهن ،والمتأمِّل للنظم الكريم يجده قد أخرج التكليف فى ثوب الخبر ،ولم يخرجه فى ثوب الأمر ،قصدا إلى التلطُّف بالمخاطب ،وتيسير الخطاب عليه ،وقد أرشد أيضا حذف

(١) فى ظلال القرآن لسيد قطب ٦ / ٣٦٠٢

المسند عند قوله (واللائي لم يحضن) على تيسير الخطاب حيث لم يعاود النظم الكريم ذكر الأجل الذى يجب على الصغائر والمرضى منهن ،وتأمَّل كيف استغرق اللفظ (واللائي لم يحضن) على وجازته صنفين من المعتدات : " من لم يحض لصغر ،ومن لا يكون لها حيض ألبتة ،وهو موجود في النساء ،وهو أنها تعيش إلى أن تموت ولا تحيض"[1] وفيه أيضا الإيحاء بأن المخاطب ينبغى عليه المسارعة فى تنفيذ خطاب الشارع ،أو كأنَّه امتثل فور صدور الخطاب له .ولأنَّ العمل هنا فيه مشقة على المكلَّف جاء الجزاء من جنسه لكى يرفع عن المكلف الحرج والمشقة فقال تعالى :﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا﴾ ،وتأمَّل معى كيف جعل الجزاء عاجلا ،ثمَّ إنَّه عظَّم أمر هذا الجزاء بجعله خالصا لأجل المخاطب (له) وبتنكير المجعول وهو اليسر (يسرا) لإطلاقه إلى غير حدّ ،وقبل كلّ ذلك بناء الجزاء فى ثوب المضارع الدالّ على التجدُّد ،وآثره ؛لأنَّه الأنسب بحال المخاطب .هذا وقد بُدئ المصدر (يُسرا) بالياء لتناسب البناء هنا مع مقام الانتقال مِن حال أسوأ إلى حال أحسن ،حيث إنَّ صوت الياء يبدو "وكأنَّه يصعد من حفرة بشيء من المشقة والجهد ؛لذلك قلّت الأفعال التي تبدأ بهذا الحرف ومعظمها من الأفعال اللازمة ،فالأفعال التي تبدأ بالياء يصعب عليها من هذا المكان الصوتي الخفيض أن تعتدي على أحد " [2] والسين للسعة والبسط بلا تخصص [3] ،فما أبلغ هذا التلاقى بين خواص الصوت ومعناه !

أما الجزاء فى قوله تعالى ﴿ذَٰلِكَ أَمۡرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيۡكُمۡۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعۡظِمۡ لَهُۥٓ أَجۡرًا﴾ فعمله كل ما كلف به المخاطب من أول السورة وحتى التكليف بما يجب على المكلف نحو المعتدات الأمر الذى لزم من تحديد آجالهن ،حيث جاء فى تفسير الطبرى وهو يوضح القول فى تأويل قوله تعالى ﴿ذَٰلِكَ أَمۡرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيۡكُمۡ﴾ بقوله "يقول تعالى ذكره : هذا الذي بيَّنت لكم من حكم الطلاق والرجعة والعدّة، أمر الله الذي أمركم به، أنزله إليكم أيها الناس، لتأتمروا له، وتعملوا به " [4]

---

(١) البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي – تح : عادل أحمد عبد الموجود – علي محمد معوض – ٨ / ٢٨٠ – ط : دار الكتب العلمية – بيروت – ط : أولى – ١٤٢٢هـ – ٢٠٠١ م

(٢) خصائص الحروف العربية ومعانيها لحسن عباس ص ٩٩ – ط : منشورات اتحاد الكتاب العرب – ١٩٩٨ م .

(٣) ينظر :السابق نفسه ص ١١٠

(٤) تفسير الطبرى ٢٨ / ١٤٤

وتابعه في القول أبو بكر الجزائري حيث قال في تفسير الآية " أي ذلك المذكور من الأحكام في هذه السورة من الطلاق والرجعة والعدة وتفاصيلها حكم الله أنزله إليكم لتأمروا وتعلموا به فاعملوا به ولا تهملوه طاعة لله وخوفاً من عذابه ومن يتق الله في أوامره ونواهيه فيؤدي الواجبات ويتجنب المحرمات يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجراً أي يغفر له ذنوبه ويدخله الجنة " [1] ووقع الجزاء بتكفير السيئات وإعظام الأجر ؛لكثرة الأعمال التي وقعت على عاتق المكلف ،وعمل المكلف ـــ وإنْ استغرق جهده ـــ لا يخلو من تقصير ،فتكفير السيئات يعني أن هناك آثاما وقعت ،وذنوبا اقترفت ،يعد المولى بتكفيرها ،وعدم مؤاخذة العبد عليها " ومعنى تكفير السيئات إزالة ما يستحق عليها من العقوبات ،وجعلها كأنْ لم تكن ،وذلك مرتّب على اجتناب الكبائر "[2] وذكر السعدي أنّ تكفير السيئات، ومغفرة الذنوب ،كل واحد منهما داخل في الآخر عند الإطلاق ،وعند الاجتماع يفسر تكفير السيئات بالذنوب الصغائر، ومغفرة الذنوب بتكفير الكبائر [3] وكل هذا جزاء للتقوى التي لزمت عن امتثال المكلف لأمر الشارع وقيامه بالعمل على الوجه الأحسن ،فتكفير السيئات وإعظام الأجر ما وقع إلا مقابلة للتقوى المأمور بها ،وقد تكرر فعل التقوى هنا لمراعاة مقام الخطاب (العمل) " إذ الزوج المطلق قد ينسب إلى مطلقته بعض ما يشينها به ،وينفر الخطاب عنها ، ويوهم أنّه إنّما فارقها لأمر ظهر له منها ،فلذلك تكرّر قوله :﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ ﴾ في العمل بما أنزله من هذه الأحكام ،وحافظ على الحقوق الواجبة عليه من ترك الضرار ،والنفقة على المعتدات ،وغير ذلك مما يلزمه يرتب له تكفير السيئات وإعظام الأجر "[4] هذا ،وعظم الجزاء هنا ينبئ عن عظم العمل في ذاته لما يترتب على خطاب التكليف من المنافع التي تعود على الكيان الأسرى بالخير العميم . كذلك في تنويع الجزاء بجعل بعضه عاجلا ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓ﴾ وهو ما حكته أول السورة الكريمة ،وبعضه الآخر آجلا ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعۡظِمۡ لَهُۥٓ أَجۡرًا ﴾ وهو ما جاء عقب الحديث عن العدة قصدا إلى إشراك المخاطب المعنى بخطاب آجال المعتدات في الثواب ما يشي بعظم الفضل والمنّة هذا ،وقد راعى النظم نسبة الإنعام والفضل إلى الله ؛فالكريم إذا تفضّل على

---

(١) أيسر التفاسير لكلام العليّ الكبير لأبي بكر الجزائري ٥ / ٣٧٧ ـــ ط : مكتبة العلوم والحكم ـــ المدينة المنورة ـــ ١٤١٤ هـ ـــ .

(٢) البحر المحيط ٣ / ٢٤٤

(٣) ينظر : تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان لعبد الرحمن بن ناصر السعدي ـــ تح : ابن عثيمين ـــ ١ / ٣١٩ ـــ ط : مؤسسة الرسالة ـــ بيروت ـــ ١٤٢١هـ ـــ ٢٠٠٠ م

(٤) البحر المحيط ٨ / ٢٨٠

عباده كان عطاؤه فياضا ،حيث إنّ النظم أورد الجزاء بعد إسناد تكليف العمل إلى الله ذاته عند قوله ﴿ذَٰلِكَ أَمْرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْ﴾ ،مع ما فى التعبير بلفظ (أنزل) من الإشارة إلى شريف التشريع حيث إن لفظ " الإنزال ذكرَهُ تعالى في الأشياء التي نبَّه على شرفها ،كإنزال الملائكة والقُرآن والمَطَر وغير ذلك " [1] وفى التعبير بلفظ (أنزل) دون (نزَّل) مثلا إشارة إلى طبيعة العمل ،وأنّه نزل ليطبق على الفور ،فما على المكلف إلا الامتثال ،ففى التعريفات " الفرق بين الإنزال والتنزيل : أنّ الإنزال يُستعمل في الدَّفعة ، والتنزيل يُستعمل في التدريج "[2] ولعلّ هذا داعٍ من دواعى تعظيم الأجر للمكلّف ،فالأجير مثلا إذا كلف بعمل ،وكان عليه أن يؤديه على الفور ،وجب له جزاء فوق ما إذا أداه على سبيل التراخى ،رغم أنّ العمل فى الحالين واحد . وفى التعبير بالجار والمجرور (إليكم) الإشارة إلى أنّ العمل يحقق ما فيه صلاح حال العبد ذاته ،حيث ترى أنّ النظم الكريم أوقع الجار والمجرور على ضمير خطاب جماعة المكلفين ،ومعناه : لأجلكم أنتم أيُّها المكلفون بالخطاب ،مع ما فى إضافة أمر التشريع إلى الله (ذلك أمر الله) والإضافة حقيقية من التنويه بعظم العمل وأهميته ،وحينئذٍ يتناسب عظم الجزاء مع عظم العمل .وفى الأسلوب برمته ﴿ذَٰلِكَ أَمْرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْ﴾ يظهر بالغ لطف الله بالعبد ،وحرصه على تشريع ما فيه النفع والخير له فى الدارين.أمَّا الإيمان بالله والعمل الصالح فى سورة الطلاق فحكى له النظم جزاء عند قوله تعالى ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا﴾ ،وقد بسط النظم للحديث عن الإيمان وجزائه فى سور القرآن الكريم ،وكان الجزاء مناسبا فى كلّ موطن لحال أهل الإيمان ووصفهم من وجه ،وللسياق الذى حلّ فيه الجزاء من وجه آخر .

ففى قوله تعالى ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ عمل وجزاء ،يتمثل العمل فى الأمر بالتقوى بعد الوعيد الشديد الذى أشار إليه قوله ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ

(١) مفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهاني مادة ( هـ ب ط )

(٢) ينظر : التعريفات للجرجاني ص ٩٣ ـ ط : دار الكتاب العربي ـ بيروت ـ ط : أولى ـ ١٤٠٥ هـ .

﴿وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ۝٩ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ والأمر بالتقوى عمل عام يشمل كل أمرٍ أمرَ به الشارع الحكيم ،وكل نهى أمر الشارع باجتنابه ،والمأمورون بالتقوى هنا فصَّل النَّظم فى أوصافهم وأحوالهم ،وكمال الوصف ينبئ عن كمال العمل ،وكمال الجزاء معا ،فهم أولو عقول مستقيمة ،مؤمنون ،وخصّ التعبير بأولى الألباب لإبراز قيمة العقل فى أمور التكليف،وفى التعبير بالاسم الموصول ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ الإشارة إلى كمال إيمانهم ،وأن الإيمان قد صار سجية فيهم ،وأنّه أمر يعرفون به ،وهو من أشهر أوصافهم فـــ " أنّك لا تَصِلُ ( الذي) إلاّ بجملةٍ من الكلام قد سَبَقَ مِنَ السامعِ علمٌ بها ،وأمرٌ قد عَرفه له ، نحوُ أنْ ترى عندَه رجلاً يُنشدُه شعراً ؛ فتقولُ له مِنْ غدٍ ما فَعَلَ الرجلُ الذي كانَ عندكَ بالأمس ينشدُك الشِّعرَ؟"[1] أما الجزاء فأرشد إليه الالتفات عند قوله تعالى ﴿قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ۝١٠ رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [2] وهو يتمثّل فى إنزال القرآن وإرسال سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام ،وآثر النظم التعبير بلفظ (أنزل) للإشارة إلى شرف المنزل وعلو قدره ،أو إرسال سيدنا محمد وحده ؛إذ فى " إبدال (رسولا ) من ( ذكرا ) يفيد أن هذا الذكر ذكر هذا الرسول ، وأن مجيء الرسول هو ذكر لهم ،وأنّ وصفه بقوله (يتلو عليكم آيات الله) يفيد أن الآيات ذكر"[3] ففى الالتفات من الغيبة إلى الخطاب فى قوله تعالى ﴿قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا﴾ إذ "كان مقتضى السياق

---

(١) دلائل الإعجاز ص ١٥٩

(٢) اختلف أهل التأويل في المعني بالذكر والرسول في هذا الموضع، فقال بعضهم: الذكر هو القرآن، والرسول محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم ،وقال آخرون: الذكر: هو الرسول ،والصواب من القول في ذلك أن الرسول ترجمة عن الذكر ،وتأويل الكلام : قد أنزل الله إليكم يا أولي الألباب ذكرًا من الله لكم يذكركم به، وينبهكم على حظكم من الإيمان بالله، والعمل بطاعته، رسولا يتلو عليكم آيات الله التي أنزلها عليه(مُبَيِّنَاتٍ) يقول: مبينات لمن سمعها وتدبرها أنها من عند الله .تفسير الطبرى١٥٢/٢٨ ط: دار الفكر بيروت١٤٠٥ هـ،وقيل الرسول هو جبريل صلوات الله عليه أبدل من ذكرا لأنه وصف بتلاوة آيات الله فكان إنزاله في معنى إنزال الذكر فصح إبداله منه:الكشاف٥٦٤/٤ وقيل :الذكر القرآن ، وفي الرسول قولان :أحدهما : جبريل ، فيكونان جميعاً ، منزلين ، قاله الكلبي .الثاني : أنه محمد صلى الله عليه وسلم ، فيكون تقدير الكلام : قد أنزل الله إليكم ذكراً وبعث إليكم رسولاً. ينظر النكت والعيون للماوردى تح : السيد بن عبد المقصود بن عبد الرحيم ٦ / ٣٦ ط : دار الكتب العلمية بيروت،وأبْيَنُ الأقوالِ فيه معنى أنْ يكونَ الذكرُ القرآنُ ، والرسولَ محمداً صلى الله عليه وسلم ، والمعْنَى وأرْسَلَ رسولاً لكنَّ الإيجازَ اقتضَى اختصارَ الفعلِ الناصب للرسول:الجواهر الحسان فى تفسير القرآن للثعالبى٣١٣/٤ط:مؤسسة الأعلمى للمطبوعات بيروت .

(٣) التحرير والتنوير ١ / ١٢٣

:قد أنزل الله إليهم ذكرا ،وكذا فى قوله ﴿ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ﴾"[1] حُسن يظهر أثره فى مواجهة المخاطب ولفته إلى سابغ فضل الله عليه ،وتذكيره بما قد يظن غفلة المخاطب عنه ،حيث يمثّل الخطاب طرقة فى أذن السَّامع (المخاطب) بإثارة انتباهه إلى العطاء الفياض.ويبدو عظيم الإنعام فى كون الخبر مؤكدا بقد ،وإسناد الإنزال إلى الله ،وجعل الإنزال خالصا لأجلهم ،وتنكير لفظ (ذكرا) الدال على عظمة الذكر ،ثم تنكير لفظ (رسولا) والتنكير أيضا لإبراز أنه رسول عظيم ،مع ما فى لفظ الرسالة من عموم يلائم عظم الجزاء ،ثم وصف (رسولا) بالجملة الفعلية الدالة على تجدد الحدوث (يتلو عليكم آيات الله مبينات) ،وإضافة الآيات إلى الله فيه إشارة إلى عظمتها ،والإضافة هنا حقيقية ،كذلك فى وصفها بأنها مرشدات إلى ما فيه الخير ما ينم عن بالغ نفعها وعظيم ما اشتملت عليه ،ثم إنّ ذكر الغاية من إرسال الرسول فى قوله (ليخرج الذين ءامنوا وعملوا الصالحات من الظلمات إلى النور) يشى بعظمة هذا الرسول إذ جعل له مهمة عظيمة ،وتأمَّل كيف جسَّدت الاستعارة التصريحية الإخراج من الكفر إلى الإيمان فى صورة محسوسة ،إذ فى نقل المعنى من المعقول إلى المحسوس يبدو الإنعام عظيما موفورا ،وهنا تتلاقى الاستعارتان والالتفات على تصوير بالغ نعمة الله بعباده المؤمنين . هذا ،وقد تناسبت تسمية سيدنا محمد بلفظ (رسولا) مع مقام الأمر بالتقوى بصيغة الإلزام ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ وكأنّ عظم الجزاء ناتج من شدة التكليف. ثمَّ إنّ التعبير بالماضى ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ يبرز وصفا مِن أوصاف الكمال لهؤلاء المؤمنين ،وهو أن إيمانهم وعملهم قد تحقّق ،بل إنّ التعبير بالموصول أفاد أنّ الإيمان والعمل الصالح سمتهما الذين يعرفان بهما ،وأفادت الألف واللام فى (الصالحات) العموم ،وكأنّهم عملوا جميع الأمور الصالحة ،ولم يتركوا شيئا منها . هذا ،وقد أفاد الالتفات من الخطاب إلى الغيبة هنا فى قوله ﴿لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ — إذ كان مقتضى السياق فى غير القرآن أن يقول :ليخرجكم من الظلمات إلى النور — توسيع دائرة الإخراج غاية إرسال سيدنا محمد عليه السلام لتشمل المشار إليهم بالنداء والخطاب فى قوله ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ وغيرهم ،ولو جرى الكلام على وفق الخطاب لبانت مهمة إرسال سيدنا محمد عليه السلام محدودة ،فعموم لفظ الإخراج يتناسب مع عموم رسالته عليه السَّلام .

(١) حدائق الروح والريحان فى روابى علوم القرآن للهررى٢٩/٤٤٩ط:دارطوق النجاة بيروت لبنان ط:أولى١٤٢١هـ ٢٠٠١ م

وفى قوله ﴿وَمَن يُؤْمِنْ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا﴾ جاء وصف المؤمنين بالإيمان بالله والعمل الصالح ،وهذا يعنى أنّ العمل الذى أدوه مركّب مِن أمرين : أولهما :الإيمان بالله ،وثانيهما: العمل الصالح ،وقد جاء بناء العمل فى ثوب المضارع الدالّ على التجدُّد والاستمرار ،وجاء لفظ (صالحا) منكّرا للإشارة إلى كثرة الأعمال الصالحة وعمومها أما الجزاء فكان الجنة ﴿يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا﴾ ،وقد جاء فى ثوب الشرط للإشارة إلى مقابلة العمل وتناسبه للجزاء ،وقد جاء مضارعا ليتناسب مع بناء العمل ،وقد فصَّل فيه النظم الكريم بأن أعقب الجزاء وهو (يدخله جنات) بوصف الجزاء (الجنة) (تجرى من تحتها الأنهار) ،ووصف حال أهلها بالخلود الأبدى (خالدين فيها أبدا) ،فـ " كلّ نعيم ينقطع فليس بنعيم فى الحقيقة ،وكذلك العذاب ،وهذا واضح ،فلولا الخلود لما كان نعيما ،فلهذا كثر ترداده مع ضروب الجزاء " [1] ثمّ استأنف بالخبر المرشد إلى حال الجزاء (قد أحسن الله له رزقا) ،حيث وصفه النظم بالحسن ،وسمَّاه رزقا ،وأسنده إلى الله ،وجعله خالصا من أجل هذا المؤمن ،وجاء الخبر ماضيا مؤكدا بقد للإشارة إلى تحقُّقه ،وكأنّه واقع فعلا . وكثرة هذه الأوصاف إنما تشير إلى عظم الجزاء وتمامه ووفرته،جزاء يناسب عملهم ،ويوائم حالهم ،فحيث أرشد النظم إلى كمّال العمل جاء الجزاء من جنسه جاء وصف الجزاء (الجنة) بجملة المضارع الدال على تجدد جرى الأنهار مبالغة فى وصف تنعمهم فى قوله (تجرى من تحتها الأنهار) لإبراز تمام الجزاء وموفور العطاء الربانى ،مع ما فى التعبير بلفظ (جنات) من التنكير وصيغة الجمع من الدلالة على كثرة منازل المؤمنين وعظمتها وفخامتها ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ وصف مقام أهل الجنة فيها بأنه أبدى فيه دلالة على كمال النعيم للمؤمنين ،والوصف يتناسب مع السياق العام للسورة الكريمة فحيث " تكرر فى هذه السورة من ذكر غايات ،بينها قوله تعالى: ﴿قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾ فلمَّا أشارت آى السورة إلى غايات ونهايات ،ناسب ذلك التعريف بأن خلود الجنة متأبّد لا انتهاء له " [2]. وفى حمل الكلام على المعنى بمجىء لفظ (خالدين) فى صورة الجمع الإشارة إلى كثرة الداخلين ،كما كان للتعبير باسم الفاعل من الدلالة على ثبوت الوصف

(١) ملاك التأويل ص ١٣٦

(٢) ملاك التأويل ص ١٣٧

وهو الخلود ما لا يخفى ،وفى عود الضمير على الجنة إيحاء بعظمتها ،فكل هذا يبرز تمام الجزاء وكماله ،كما كان لمساق الخبر فى ثوب التعجب من هذا الجزاء الأخروى ما يشى بتمامه واكتماله أيضا .

﴿قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا﴾ حمل الكلام على اللفظ هنا بعد حمل الكلام على المعنى " للدلالة على أن لكل فرد رزقاً ،ولو قال تعالى (لهم) تصبح للعموم .. فالإفراد دلّ على أنه تعالى أفرد كل واحد على وجه الخصوص يُحسن له الرزق وليس على العموم ،وهذا تنصيص "[1] فالحمل هنا على المعنى تارة ،وعلى اللفظ أخرى ،للإشارة إلى عظم الإنعام وتمامه ،وهذا من بديع التعبير القرآنى.هذا ووقوف النظم عند هذا الجزاء ،وهو دخول الجنة ،دون أن يشتمل على تكفير السيئات مثلا الذى اشتمل عليه جزاء المؤمنين فى سورة التغابن قبل سورة الطلاق تناسب مع السياق القبلى ووصف أهل الإيمان فى سورة الطلاق ؛ذلك " لأنّ قبلها : ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، والأمر بالتقوى يعمّ ولا يخصّ، ثمّ قال تعالى : ﴿قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ۝ رَّسُولًا﴾ إلى قوله : ﴿لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ ، أشار إلى النمط الأعلى من المؤمنين المستوفين أعمال الطاعات، أشار إلى ذلك لفظ : (الصالحات) بالألف واللام، وهذه حال المُخلصين المحسنين مِن المستحيبين، ثمّ تدارك تعالى مَن لم يبلغ حال هؤلاء من المؤمنين ،ولحق بهم في النجاة ،فقال تعالى : ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ فناسب حال المتقدمين من ذوي الإحسان ألا يقع إفصاح يشعر بعصيان "هم القوم لا يشقي بهم جليسهم"[2] فوقع الاكتفاء بإيماء ﴿وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾ وقوله ﴿يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ﴾ وقوله ﴿قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا﴾ ،فجاء كل من الآيتين على ما يلائم ويناسب ،ولم يكن ليناسب ورود العكس"[3] وختاما :لقد عرضت سورة الطلاق للجزاء مُتناسبا مع العمل ،وهذا حسَن ؛لأنّ السورة الكريمة تعالج تشريعا يتعلق بالكيان الأسرى الذى هو نواة المجتمع كلّه ،وارتباط الجزاء بالعمل فى النظم عامَّة ،وهنا خاصَّة ،يدفع المكلّف إلى الإخلاص فى العمل بلفت انتباهه إلى ما أعد له عاجلا وآجلا .

ثالثا : سمت بناء السورة الكريمة على الترقى وتنامي المعاني :

---

(١) من المسات البيانية فى سورة الطلاق د فاضل السامرائى .

(٢)حديث متفق عليه أسنى المطالب في أحاديث مختلفة المراتب لمحمد بن درويش ص ٣١٢ رقم الحديث ١٦٤٥ ط : دار الكتب العلمية .

(٣) ملاك التأويل ص ٢٥١

التَّرقي [1] أحد السِّمات التي بَدت في بناء تركيب سورة الطلاق ،وقد ظهر ذلك في عدّة أشكال ،كسمت الترقي من الشريف من إلى الأشرف أو من العظيم إلى الأعظم ،وله عدة اعتبارات ،كالترقي باعتبار الجزاء ،وكالترقي باعتبار تشريف المخاطب وتكريمه،وكالترقي في صفات العطاء .وكسمت الترقي من اللزوم إلى الألزم ،أو من الأخفّ إلى الأثقل ،وقد جاء عليه الترقي باعتبار تكليف المخاطب وكسمت الترقي من الشديد إلى الأشدّ، أو من الفظيع إلى الأفظع ،وقد جاء على هذا الوصف ترقي ذكر ألوان العذاب في السورة الكريمة في مقام الترهيب الذي صوره النصف الآخر من السُّورة وكسمت الترقي من القريب إلى الأقرب ،وقد صَوَّر هذا الوصف ترتيب المُعتدات في آية الحديث عن مقدار عدة كلّ صنف من أصناف المعتدات ،فقد رتَّب ذكرهنّ النَّظم الكريم باعتبار مقام القرب والبعد اللازم عنه تفاوت درجة المعتدات ،وذلك إمَّا على اعتبار حظوتهنّ عند الأزواج ،وإمّا على اعتبار القدم ،وإمَّا على اعتبار مقدار الشقاق بين المرأة والرَّجل إذا وقع الطلاق.وقد سايرت أساليب السورة الكريمة وجوه الترقي ومعانيه ،وجاءت وكأنّها قد انعكست عليها.

أولا : سمت الترقي من الشريف إلى الأشرف

وهذا الوصف هو الغالب في بناء السورة الكريمة تلاقيا مع مقام التشريع ،وهو وصف جامع لعدة اعتبارات ، لم تخرج في حقيقتها عنه بحال ،وكأنّ العلاقة بين الوصف واعتباراته التي تندرج تحته علاقة ما بين الكلّ وجزئه ،أو علاقة ما بين العام والخاص .

**أ ــ : الترقي باعتبار الجزاء :**

---

(١) الترقي في اللغة عبارة عن الصُّعود ،يقال رقي إلى الشيء رقيا ورقوا صعد ،ويقال ما زال فلان يترقّى به الأمر حتَّى بلغ غايته:لسان العرب مادة (ر ق ى) أمَّا في اصطلاح البلاغيين :فقد عرَّفه الطيبي (ت ٧٤٣ هـــ ) : بأن يذكر معنىً ،ثمّ يُردَف بما هو أبلغ منه ،كقولك فلان عالم نحرير ،وشجاع باسل ،وجواد فياض ،وقوله تعالى ( هو الله الخالق البارئ المصور)(الحشر:٢٤) أي: قدّر ما يوجد ،ثم ميّزه ،ثمّ مثّله ،وقوله تعالى:( ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم)(البقرة:١٢٠) ،معناه لا يرضى عنك مَن هو أقرب مودة ،وهم النصارى ،فكيف من هو أبعد؟وهم اليهود: التبيان في البيان للإمام الطيبي المتوفى سنة ٧٤٣ هـــ جمعا ودراسة د عبد الستار حسين زموط ـــ رسالة دكتوراة ج الأزهر ص ٢١٩ ١٣٩٧ هـــ ١٩٧٧ م وعرَّفه أبو البقاء الكفوى (ت ١٠٩٤ هـــ ) بقوله : " الترقي من الأدنى إلى الأعلى إنَّما يكون فيما إذا كان الأعلى مشتملاً على معنى الأدنى ،لأنَّ تقدم الأعلى إذ ذاك يغني عن ذكر الأدنى بعده"ينظر الكليات ص ١٠٣٦ ،وتعريف الطيبي أوسع وأعمّ من تعريف أبي البقاء ،فبتأمُّل تعريف الطيبي والأمثلة التي ذكرها للترقي تجد أنه لا يجب عنده أن يكون الأعلى مشتملا على معنى الأدنى بحال والترقّي في اصطلاح أهل الطريق التنقُّل في الأحوال والمقامات: التعاريف ١/١٧٢ومن هذا النوع :تأخير الأبلغ ،وقد خرج عليه تقديم الرحمن على الرحيم ،والرءوف على الرحيم ،والرسول على النبي في قوله (وكان رسولا نبيا ) ( مريم : ٥١ ) . ينظر :الإتقان في علوم القرآن ٢ / ٣٩

المُتمعِّن لبناء الجزاء فى صدر سورة الطلاق يجد أنَّه قد بُنى على الترقى من الأدنى إلى الأعلى ،ولعلَّه الأنسب فى مقام التشريع ،حيث يأتى تدرُّج ذكر الجزاء حافزا للمكلَّف وقد أخذ بيده نحو التكليفات والتشريعات خطوة خطوة ،فخلف كلّ تشريع يجد المخاطب ما يدفعه نحو التقدم فى الطَّاعة ،وقد اتَّكأ النَّظم الكريم فى المقام الأول على أسلوب الشرط بما يحويه مِن طاقة هائلة على الإثارة واللفت.فقد جاءت الجزاءات فى فواصل السورة الكريمة على النحو التالى ،بدأ بوعد عام فى المستقبل وذلك فى ثوب الرجاء عند قوله سبحانه ﴿لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾ وثنَّى على سبيل الترقى من الأدنى إلى الأعلى بالأمر المادى المحسوس الملائم لحال الموعود بالجزاء وهو إزاحة الضِّيق وتوفير الرزق الذى لم يَعهَد صاحبُه طريقه فى قوله تعالى ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ ،وبدأ بإزاحة الضيق عنه المعبر عنه بجعل المخرج وثنَّى بتوفير الرزق ترقيا أيضًا من الأدنى إلى الأعلى حيث انتقل بالمخاطب من حال الضيق وكل معانى الكرب إلى حال السعة ،فدرء المفاسد مقدَّم على جلب المصالح ،كما يقول الأصوليون ،وكأنَّ النظم الكريم بدأ بما يزيل عن صدر المخاطب ما يجده ليتنفس الصعداء ويشهق شيئا بسيطا من الراحة ثم راح يعده بالرزق الواسع الذى لم يكن يحتسبه أبدا ،وهنا ننظر لعظمة العطاءات الربانية ،وبديع حكمتها فى معالجة النفوس وقد أصابها ما يعكِّر صفوها . ثمَّ راح النَّظم الكريم يعده بالكفاية والكفاية لون من ألوان حفظ العبد ورعايته ،وهى أشمل وأعلى حالا من الرزق الذى لم يحتسبه صاحبه ،حيث تشمل الكفاية الرزق وغيره ،وذلك فى قوله ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾ بل إنَّ المتأمِّل لبناء جملة الكفاية يراها قد بُنيت فى ثوب الجملة الاسمية الدالة على الثبوت ،وهذا يضفى على الجزاء لونا من الكمال . ثمَّ راح النَّظم الكريم فى قوله تعالى ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾ يعده بتيسير أموره ،وقد أطلق هذا اليُسر بتنكير كلمة (يسرا) ،ولاسيَّما وقد جعل النَّظم الكريم الجزاء خالصا لأجل المخاطب ،وأفاد الجار والمجرور (مِن أمره) ابتداء الغاية التى من جنسها تيسير أموره كلِّها حقيرها وعظيمها ،فهو إذا أعلى من الكفاية . هذا فى العاجل ،وهو من دون شك يصغر أمام آجل الأجر الذى حكاه النَّظم الكريم عند قوله ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا﴾ والذى حكى فيه تكفير السيئات

وإعظام الأجر خالصا لأجله وقد أفادت صيغة (فعّل) التى مثّلتها كلمة (يكفر) المبالغة اللازم عنها عظمة الجزاء وكماله ،وقد قدّم أولا تكفير السيئات على إعظام الأجر ترقيا أيضا من الأدنى وهو تكفير السيئات إلى الأعلى وهو إعظام الأجر الذى أطلقه تنكير كلمة (أجرا) ،حيث إنّ درء المفاسد مقدّم على جلب المصالح كما أشرت آنفا .

ثم إنْ كان تكفير السيئات وإعظام الأجر فى الآجل عظيما ،فأعظم منه ما حكاه النظم عند قوله ﴿وَمَن يُؤْمِنْ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا﴾ ،حيث حكى الجزاء هنا دخول الجنة فى دار الحساب ،وقد وردت أوصاف هذا الجزاء أيضا فى ثوب الترقى ،حيث وُعد المؤمن بدخول الجنة ،ثمّ وُصفت الجنّة بجرى الأنهار من تحتها ،وهو وصف كمال لها ،ثمّ وُصف نعيم أهلها بالخلود الأبدى الذى يكمل معه الجزاء منتهى لا آخر له .

**ب ــ الترقى باعتبار تشريف المخاطب :**

التشريف أول ما يلقاك حين تطالع سورة الطلاق ،اختزله النظم الكريم ،وكثّف معانيه فى فاتحة السورة الكريمة عند خطاب النبى صلى الله عليه وسلم بوصف النبوة التى من شأنها رفع التكليف عنه عليه السلام .

يتجسد هذا المعنى السامى فى أخريات السورة الكريمة ،فعندما يقف القارئ عند قوله سبحانه ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ يجد للترقى حضورا ،فقد جاء الأمر بتقوى الله مخاطبا أولى العقول المستقيمة ،وهذا الوصف عام ،قد يكون صاحبه مؤمنا ،وقد يكون كافرا ،فعندما يأتى الوصف بالإيمان بعد الوصف بأولى الألباب يكون المخاطب قد ارتقى فى الوصف درجة أكمل منها وأتمّ ،وهذا تشريف للمخاطب وتكريم ،ثمّ إنّ إنزال الذكر وهو القرآن لهذا المؤمن ،والتسمية وحدها تعنى الشرف والمفاخرة ترق فى مقام التشريف والتكريم ،فمقام إنزال الذكر لأجل المخاطب أعلى من مقام وصف المخاطب بالإيمان فقط ،فكيف وقد أبدل من لفظ (ذكرا) لفظ (رسولا) ثم إن وصف الآيات المتلوة فى قوله (رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ) بأنّها مبينات ترقٍ واضح ،غرضه إبراز كمالها ،ورفعة شأنها ،فالوصف بأنّها آيات مبينات أكمل وأتمّ مِن تسميتها مجردة ،ففى الوصف أيضًا تشريف

للمخاطب ،ثمّ إنّ فى ذكر العمل الصالح فى مقام الحديث عن غاية الإخراج عند قوله ﴿لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ تشريفا للمخاطب إذ به يكمل الإيمان ويتم ،رغم أنّ العمل الصالح لا قيمة له إذا فارقه الإيمان .

**ج ــ الترقى فى صفات العطاء (صفات ذى الجلال) فى السورة الكريمة :**

المتأمِّل للأخبار التى جاءت فى فواصل الآيات الكريمة ،والتى وردت فى مقام الحديث عن أوصاف الذات العلية ،يجد أنّها وردت فى السُّورة على سبيل الترقى والتدرُّج فى الوصف بما يتناسب مع معانى الآيات ومضامينها التى ختمت بها الفواصل ،وقد جاءت أوصافِ ذى الجلال فى غير سياق الإنعام على النحو التالى :

﴿لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾

﴿لِّتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾

فالآية الأولى ختمت بوصف الألوهية بتقدير الأمور وترتيبها على وَفق إرادته سبحانه ،والثانية وصفت ذات الله بوصفين : أولهما : الإخبار بأنّ مراده حاصل لا محالة وثانيهما : الإخبار بأنه قد جعل مقدارا معينا لكلّ شىء على سبيل الإحاطة والعموم .والثالثة جاءت بوصف الله بالقدرة المطلقة التى لا تحد بحد ،والتى لا يعجزها شىء ،كبيرا كان أو صغيرا ،وبالعلم المحيط بكل شىء حتى لا يغيب عنه شىء فى كونه .فالأوصاف قد تتابعت على هذا النحو مترقية مِن الأدنى إلى الأعلى ،وكلّها أوصاف كمال تليق بذاته سبحانه وتعالى .ثمّ انظر معى كيف جاء الوصف أولا فى مقام الترجّى خاليا من التوكيد .،وكيف جاء الوصفان فى الآية الثانية مؤكدين :أحدهما مؤكدا بإن ،وثانيهما مؤكدا بقد مع اقترانه بمعنى الإحاطة والشمول . وكيف جاء الوصفان فى الآية الثالثة مؤكدين بأن بعد بيان أنّ الغرض من وصف الألوهية علم المخاطب ،وهو عموم الناس ،بمضمونه ، وتأمّل كيف اقترنت الإحاطة والشمول بكل من الوصفين مبالغة فى وصف كمال الذات العلية . وبين قوله تعالى ﴿وَأَحْصُواْ ٱلْعِدَّةَ﴾ وقوله واصفا ذاته ﴿لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾ فى مطلع السورة وقوله تعالى فى نهاية

السورة ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا﴾ تناسب بيِّن أشار إليه السيوطى[1] ولعلّه يكمن فى التقاء الأول والآخر عند معنى الإحاطة من وجه ،والتقاء الأول والآخر عند الحديث عن كمال أوصاف ذى الجلال التى تليق به سبحانه من وجه آخر .

**ثانيا : سمت الترقى من اللزوم إلى الألزم :**

لحرص الشَّارع الحكيم على الأخذ بيد المكلَّف خرجت التشريعات فى سُورة الطلاق فى ثوب الترقى مِن اللازم إلى الألزم ،وهذا السَّمت له اعتبار وحيد فى سورة الطلاق يُمكن للباحث أن يُطلق عليه :

الترقى باعتبار تثقيف المخاطب فى مقام التكليف :

للنظم الكريم فى سورة الطلاق طريقة بديعة فى تثقيف المخاطب وتربيته نحو الطاعة اللازم عنها امتثال المكلف بالتشريعات الربانية .

صوَّر هذا التثقيف بناء الأوامر التى تتابعت فى السورة الكريمة على الترقى من الأسهل إلى الأصعب ،ذلك لأنَّ منها ما يؤديه المكلف من دون مشقة ،ومنها ما يؤديه بشىء من ذلك ،فالأوامر فى السُّورةالكريمة قد تفاوتت درجتها ،وتباعدت مراتبها .

ذلك لأنَّ أُسلوب الترقى من الأدنى إلى الأعلى هو الملائم لمقام التشريع ، حيثُ إنَّ أسلوب الترقى يأخذ بيد المكلَّف نحو الامتثال ،ولاسيَّما وقد ضربَ النظم الكريم المثل الأعلى فى ذلك ،كما جرى فى حديث النظم الكريم عن تحريم الخمر ،وهو ضرب مِن التناسب .

فالأمر بإحصاء العدة جاء بعد الأمر بالطلاق فى وقت طهر المرأة ،ثمَّ جاء الأمر بالتقوى خاتما للأوامر فى هذا الشأن لتلقي التقوى ظلالها على ما سبق من تكليف ،وهو أشمل وأعمّ مِن الأمرين السابقين .

وفى قوله تعالى ﴿فَإِذَا بَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمۡسِكُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ فَارِقُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٖ وَأَشۡهِدُواْ ذَوَيۡ عَدۡلٖ مِّنكُمۡ وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ﴾ جاء الأمر بالإمساك إذا قارب بلوغ الأجل أو المفارقة ،وبدأ بالإمساك لما فيه من المنافع ،وفرَّع عليهما الأمر بإشهاد ذوي عدل من المسلمين ﴿وَأَشۡهِدُواْ ذَوَيۡ عَدۡلٖ مِّنكُمۡ﴾ ،واختير الجار والمجرور (منكم) بلفظ الخطاب للإشارة إلى أنَّ العدل يجب أن يتحقق فى عموم المسلمين ،ولاسيَّما في مقام المنازعة والخصام .

---

(١) ينظر : مراصد المطالع فى تناسب المقاطع والمطالع ،بحث فى العلاقات بين مطالع سور القرآن وخواتيمها لجلال الدين السيوطى قرَأه وتمّمه د :عبد المحسن بن عبد العزيز العسكر ص ٧٢ ــ ط :مكتبة دار المنهاج ــ الرياض ــ ط :١ ــ ١٤٢٦ هـ ــ .

وجاء الأمر بإقامة الشهادة لله ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَـٰدَةَ لِلَّهِ ﴾ بعد الأمر بالإشهاد ترقيا وتناميا للمعنى ،وتبدو عظمة تنامي المعنى هنا فى استحضار المكلّف بالإشهاد عظمةَ الإشهاد بين يدى ربه ؛فيبدو أمر الإشهاد عظيما فى عينيه .

وفى قوله تعالى ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُواْ عَلَيْهِنَّ ﴾ جاء الأمر بإسكان المعتدات ،وتبعه النهى عن عدم مضاراتهن ،وفيه ترقٍ وتنامٍ للمعنى ،فالأمر مقصور على توفير السكن ،لكنَّ النهىَ عن عدم مضاراة الأزواج أعمّ وأشمل ؛إذ هو يشتمل على ما فى الأمر مِن معانٍ وزيادةٍ ،فبالنهى يكمُل أمر الإحسان إلى هؤلاء المُعتدات ،ويبدو حرص الشارع على رعايتهنَّ فى صورة أكمل وأحسن ،حيث تترع النفس فى هذا المقام إلى الظلم ومجاوزة الحد ،فترقى المعنى هنا اتّسق مع سياق العناية بالأزواج وهو السياق العام الذي تؤسِّس له السورة الكريمة .

أمَّا قوله ﴿وَإِن كُنَّ أُوْلَـٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُواْ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ﴾ فهو مِن تأسيس المعنى على المعنى ،لكنَّ الأمر فى قوله تعالى ﴿ وَأْتَمِرُواْ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ ﴾ بعد الأمر فىّ قوله تعالى﴿ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ﴾ من الترقى ،حيث وُجِّه الأمر الإلهي نحو الزوجين معا ،حتَّى يكتنفهما المعروف ،ويُلفّهما بظلاله ،فما أبدع النظم الكريم وهو يبدأ بأمر أحد الزوجين ،ويثنّى بالأمر لهما معا ! ،أليس ترقيا الانتقال من الواحد إلى الاثنين ؟

أمَّا الأمر فى قوله ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ﴾ فخطاب للموسرين ،وهم قلّة ،وبدأ بهم مُوجزا لشأنهم ،ترقيا من الحديث عنهم إلى الحديث عن ضائقي الرزق الذين يكثر عددهم ،وهم الذين تعالج أحوالهم سورة الطلاق عند قوله ﴿ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴾ فالترقى هنا يصوِّره الانتقال من القليل عددا إلى الكثير . وفى جانب المُوسرين كان الإنفاق من جهة الموسر ذاته

،ومن ماله خاصة ،لكن فى جانب ضائقي الرزق كان الإنفاق مما آتاهم الله تلطفا بهم وتعظيما للقليل الذى في أيديهم ؛لأنَّ الإيتاء مسند إلى الله ذاته ،فهذا ترقٍ واضحٌ .

فبناء المعنى على المعنى سمت بدا واضحا فى بناء سورة الطلاق ،ترى النظم الكريم فيها وهو ينتقل من حال إلى حال ،ومن تشريع إلى تشريع فى انسياب ،وحسن انتقال ،وتآلفَ فيما بين المعانى ،وتراك تلمس حُسن وطرافة تدرُّج المعانى وترقيها إذا حاولتَ تقديم معنى على آخر ، فالمعانى فى السورة كأنَّها بناء يتصاعد يستحيل أن يكون الآخر قبل الأول ،أو كأنَّها حلقات مُسلسلة برباط مُحكم لا يمكن أن تنفصم بحالٍ ،ولعلَّ هذا سِر من أسرار إعجاز القرآن الكريم الذى فاق طوق البشر جميعهم من لدن آدم عليه السلام وإلى أن تُشرق الشمس مِن مغربها .

**ثالثًا : سمت الترقى مِن الشديد إلى الأشدّ :**

المتأمِّل لسورة الطَّلاق يظهر له جليًّا بناء صدر السُّورة على الترغيب ،وبناء آخرها على التَّرهيب ،وهذا أمر يفسِّره اختلاف أحوال المكلَّفين ،حيث إنَّ البعض يناسبه الترغيب والبعض الآخر يناسبه الترهيب ،فالمكلَّفون درجات مختلفة ،والناس معادن متنوعة ،ففى مقام الترهيب عرضت السُّورة لحال العاتى المُستنكِف عن أمر ربِّه ورسله ،وجسَّدت الجزاء الأنسب به فى ثوب الترقى ،بدأت بالعقاب الشديد ،وثنَّت بالأشدّ منه ،وهكذا دَوَالَيكَ .

**الترقى في مقام ذكر العذاب فى السورة الكريمة :**

ذكر العذاب فى السورة حكاه النظم الكريم فى آخرها بصورة موجزة فيها تكثيف وتنويع ،وذلك عند قوله ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ حيث جاء فى مقام الحديث عن جزاء مخالفة أمر الله ورسوله ،وهو حديث يتَّسق مع ما عرضت له السورة من تشريعات وتكليفات ،فنصف السُّورة الأوّل قد عرض للتشريع فى صورة الترغيب ،ونصفها الآخر قابله مرهِّبا ومحذِّرا ،ولكن لا يخفى على مُتأمِّل أنَّ ذكر العذاب كانت له ومضات سريعة فى ثنايا ذكر النعيم مِن مثل الأمر بتقوى الله ومِن مثل قوله تعالى ﴿ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ﴾ وكأنَّها كانت تمهيدا لحديث النظم بعد ،حتَّى يأتى ذكر صورة الترهيب بعد الترغيب وقد توقَّعته النفس وتمكن أىَّ تمكُّن ،وكأنَّه مأنوس منتظر ،وهذا من بديع السَّرد ،ولطيف التتابع .

فالمتأمِّل هنا يجد أن النظم بدأ بذكر حال المخالف العاتى ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ﴾ وقد أسند العتوّ إلى القرية مجازا عن أهلها قصدا إلى تبشيع جريرة الاستكبار والنبو عن الطاعة فى نفس السَّامع ،فقد جعل القرية وهى مكان ملابسة العتو عاتية بذاتها

"وإنَّما أوثر لفظ القرية هنا دون الأمة ونحوها ؛لأنَّ في اجتلاب هذا اللفظ تعريضا بالمشركين من أهل مكة ومشايعة لهم بالنذارة ،ولذلك كثُر في القرآن ذكر أهل القرى في التذكير بعذاب الله " (١)

،ثمَّ إنَّه ذكر ما عنه عتت ،وهو أمر ربها ورسله ،تفظيعا لهذا الشأن ،وذكر لفظ الربوبية هنا دون غيره مقصود لأجل توبيخ المحكىّ عنه وتقريعه .

أمَّا العذاب فجاء فى صور ثلاثة بدأ بالمحاسبة ؛ لأنَّها أخفّ ،وقد جاء التعبير فى صورة الماضى للدلالة على تحقُّقه ،وأُسندت إلى الله لإبراز عظم المحاسبة ،وأتبعها بالمصدر مبالغة ،ثمَّ وصفها بالشِّدة ،وهذا يعنى بلوغ المحاسبة غايتها .

ثمَّ ثنَّى بذكر التعذيب وهو أشد من المحاسبة ، وقد جاء على وزن (فعَّل) دلالة على تكراره وأسنده أيضا إلى الله ،ووكَّده بالمصدر مُبالغة ،ووصفَه بأنَّه نكر ،وهذا يعنى أيضًا بلوغ وصف التعذيب غايته .

وقد وصفت المحاسبة بأنها شديدة والعذاب كذلك ؛ " لأنَّ إعراضها كان كذلك بما نبه عليه تسميته عتواً " (٢) ،وهذا يعنى أنَّ الجزاء من جنس العمل ،مع ما فى لفظ العتو مِن شدة وغرابة تتلاقى مع غرابة الجُرم الحاصل وفظاعته ،وكأنَّ شدة جرس الكلمة يُنبئ عن مدلولها.

وصف العذاب بأنه نكر لفظاعته وغلظته ؛ذلك " لأنَّ العقل يحير في أمره ؛لأنه لم ير مثله ،ولا قريباً منه ليعتبره به " (٣) وهذا لقبح فعال هؤلاء القوم .

وثلث بذكر إذاقة الوبال وعاقبة الخسران المتمثلة فى إعداد العذاب الشديد لهم وهى صورة أشد وأنكى من المحاسبة والتعذيب ﴿فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَـٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ۝٩ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ وقد استعار التعبير بالإذاقة لما حصل لهذه القرية لتصوير النكال الذى لحق بهذه القرية وأهلها وتجسيده ،وبيان أنَّ القوم قد تجرَّعوه تجرُّع الشراب ،وهذا مِن المبالغة فى شأن ما لحق بهم .

(١) التحرير والتنوير ٢٨ / ٣٣٤

(٢) نظم الدرر للبقاعى ٢٠ / ١٦٦

(٣) السابق ٢٠ / ١٦٦

أما قوله ﴿وَكَانَ عَـٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا﴾ فقد أفاد التعبير بكان أنّ الخُسران أمر ملازم لهذه القرية ،وهو قبيح لتعلقه بعاقبة الأمر .

وجاء قوله ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ على سبيل الإيضاح بعد الإبهام الكائن فى عاقبة الخسران " ليرى المعنى في صُورتين مختلفتين ،أو ليتمكّن في النفس فضل تمكُّن ،فإنّ المعنى إذا ألقي على سبيل الإجمال والإبهام تشوَّقت نفس السامع إلى معرفته على سبيل التفصيل والإيضاح ؛فتتوجه إلى ما يرِد بعد ذلك ،فإذا ألقى كذلك تمكّن فيها فضل تمكُّن ،وكان شعورها به أتمّ " [1] ،وقد أُسند إعداد العذاب إلى الله إسنادا حقيقيا لإبراز شدته ،ووكده بالمصدر ووصفه بالشدة ،وهو سمت ملحوظ جرى فى بناء صور العذاب الثلاث للتأكيد على شدة ما يحيط بالقرية وأهلها ،فاستعارة التعبير بالإذاقة ،والتعبير بلفظ الكون ،ومجيء الإيضاح بعد الإبهام ،وبناء جملته على إسناد إعداد العذاب إلى الله ،وتوكيده بالمصدر الدالّ على المبالغة ،ثمّ وصفه ،أمور تعاضدت على إبراز شدة ونكاية ما لحق بالقوم . فتدرُّج ذكر العذاب فى السورة الكريمة فيه مِن تقطيع نفوس المعذّبين ،وإهانتها ،ما لا يخفى ،وهو حسَن فى مقام الترهيب والتخويف ؛إذ هو يلائم حال النفس البشرية التي يحسُن معها الترقى من الأدنى إلى الأعلى أخذا بها نحو الامتثال والاستكانة .

**رابعا : سمت الترقى من القريب إلى الأقرب :**

هذا الوصف من أوصاف الترقى قد صوَّره النَّظم الكريم فى سورة الطَّلاق عند ذكر المعتدات ،حيث كان ترتيب المعتدات راجعًا إلى حالهنّ مع أزواجهنّ ،إمَّا على اعتبار حظوتهنّ عند الأزواج ،وإمّا على اعتبار القدم ،وإمَّا على اعتبار مقدار الشقاق بين المرأة والرَّجل إذا وقع الطلاق .

جاء حديث النظم عن المعتدات فى قوله تعالى ﴿وَٱلَّـٰٓـِٔي يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَـٰثَةُ أَشْهُرٍ وَٱلَّـٰٓـِٔي لَمْ يَحِضْنَ ۚ وَأُو۟لَـٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾ ويبدو أنّ النَّظم الكريم قد رتَّب ذكر المعتدات فى السُّورة الكريمة على مقدار حظوتهن عند الرجل ،فالتي يئستْ من المحيض لكبر سنها قد تكون أقلّ حبا عند زوجها من التى لم تحض لصغر مثلا ،وأولات الأحمال أكثر عشقا من غيرها فقد يكون منها الولد الذى تقر به عين الرجل فهى أبعدهن عن توقع حصول الشقاق وأقربهن عنده مودة ورحمة ؛ذلك لأنّه إن لم يكن لها فى قلبه مكان كان ذلك لولدها .وقد يكون الترقى هنا باعتبار القدم وطول المكث

(١) الإيضاح ص١٨٦

عند الزوج ،فالتي يئست من المحيض أكثرهن مكثا تليها التي لم تحض لصغر تليها أولات الأحمال ،فقد تحمل المرأة عقب البناء بها مباشرة . وقد يكون الترقي باعتبار مقدار الشقاق بين المرأة والرجل عند حدوث الطلاق حيث يكثر عند التي يئست لطول العشرة بينهما وحاجتها لمن يقوم على شؤونها أكثر ،ويقلّ شيئا عند الصغيرات اللائي لم يحضن ؛لأنّها تأمّل أن يخلفها الله خيرا منه ،في حين يقلّ حدوث الشقاق كثيرا عند أولات الأحمال ؛لأنّ توقّع المراجعة ،وعودة الحياة بينهما قائم ،ومن ثمّ فهي تبتغي رضاه علّه يراجعها أو يحسن إلى ولدها . وقد يكون الترقي هنا باعتبار أجل المعتدة في بيت الزوجية ،حيث بدأ باللآئي يئسن من المحيض واللآئي لم يحضن ؛لأنّ أجل العدّة ثلاثة أشهر ،وثنى بأولات الأحمال لمكثهنّ مدّة تطول في الغالب عن ثلاثة أشهر ،فبدأ النّظم الكريم بالأقلّ مدة ،وثنّى بالأكثر .

**رابعا : سمت بناء الكلمة في سورة الطلاق :**

تسير الدراسة في هذا المبحث حول وسائل صياغة الكلام ،وطرقه التي عليها تكثر بنيان الكلام ،محاولة من الباحث التعرف على البناء اللغوي لسورة الطلاق .

فالكلمة في سورة الطلاق لها سمتها الخاص بها الذي يتناسب مع قضايا السُّورة وأهدافها ،فالناظر في بناء السورة يظهر له أنّها قد بُنيت لإبراز أمرين :أوّلهما التكريم والإقبال وثانيهما الوعد والضمان ،ومن ثمّ سار بناء الكلمة في السورة وفق هذين المعنيين معا جنبا إلى جنب ،حيث بدا ذلك في أشكال عديدة ،وسوف نقف ـــ بإذن الله ـــ عند المفردات التي بدت في ثوبي الكثرة والشيوع ،أو الاطّراد فحسب ؛إذ هي عين دراستنا ،فنقول وبالله التوفيق .

**اطّراد بناء الفاصلة على التنكير ،وغلبة بناء الفاصلة على الاسم في صورة المصدر :**

لقد جاءت سورة الطلاق في إحدى عشرة آية ،اطردت فاصلتها على التنكير ،وقد وقع المصدر في عشر آيات منها ،وهذا يعني أن جل فواصل السورة قد بنيت على المصدر ،وهذا يناسب مقام الوعد والضمان ،فغلبة بناء الكلمات في فواصل الآيات على التنكير يحمل السعة ونزع كل ما يشي بالتضييق والكلفة على المخاطب ،فالتنكير في الفاصلة كانت له دلالة مهمة ،وهي الإطلاق ،سواء كان الإطلاق في الأجر ،أو في الوعد ،أو في الوعيد ،أو في إضفاء الكمال على بعض صفات ذات الله العلية .

ففي قوله مثلا في فاصلة الآية الأولى ﴿لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحۡدِثُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ أَمۡرٗا﴾ تجد ما في التنكير مِن السَّعة والعظمة ،وكيف أنّ التنكير قد أطلق إرادة الله وتقديره إلى غير حد . وانظر قوله في مقام الجزاء ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا﴾ وقوله ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا ﴾ وقوله ﴿ وَيُعۡظِمۡ لَهُۥٓ أَجۡرًا ﴾ وقوله ﴿قَدۡ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكُمۡ ذِكۡرٗا ﴾ تجد للتنكير من إفادة تعظيم الجزاء ،وإبراز أنّ العطاء غزير ما لا يخفى .

ولمراعاة مقام الإقبال والتكريم عليه صلى الله عليه وسلم تجد النَّظم الكريم يعبِّر عن القرآن بالذِّكر ﴿قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا﴾ دون أن يسميه قرآنا أو كتابا ،فالذكر يعنى الشرف والمفاخرة ،وهى تسمية اختصّ بها المترل على سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام ،وهي تسمية جامعة ،عجيبة ،لم يكن للعرب علم بها من قبل أن ترد فى القرآن ،كما يقول الطَّاهر بن عاشور [1] والتنكير يشى بعظمة المترل وبعد مترلته .

وفى مقام الوعد تأمَّل كيف كان للتنكير من الفضل فى إبراز عظمة الوعد وسعته ،وكيف أنه يشى بالطمأنينة والفرج ،كما فى قوله سبحانه ﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ وقوله ﴿قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا﴾ ،ثمَّ إنَّه فى قوله تعالى ﴿وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ﴾ تجد أنَّ التنكير قد وسع على الرجل حين المعاسرة كثيرا ،حيث أفاد التنكير النوعية التى تعنى أنَّ أىَّ امرأة مرضع يأخذ الطفل ثدييها قادرة على أن تعول الرضيع ،وتغذيه ،إذا أبتِ الأم ذلك .

وفى قوله ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ أفاد تنكير لفظ (شىء) النوعية ليعنى الإحاطة والشمول ،وأنَّ الشىء صغيرًا كان أو كبيرًا ،عظيمًا كان أو حقيرًا فهو فى حيِّز إحاطة الله التى لا يغيب عنها شىء ،وجاء تنكير (علما) فى الفاصلة ليبرز عظمة علم الله التى من شأنها معرفة ما فى الكون معرفة تامة ،وهكذا بُنيت الفاصلة القرآنية فى سورة الطَّلاق على التنكير الذى راعى مقامى التكريم والضَّمان اللذين هما هدفا السورة الكريمة وغرضاها الرئيسان .

،ولا شك أنَّ تنكير المفردة قد التقى مع معانى السورة الكريمة ،حيث كان أحد المبانى التى سَمَت بالمعانى سُمُوّا رفيعًا .

**غلبة بناء الفعل على المضارعة فى مقام الجزاء خاصة :**

حوت السورة الكريمة من الأفعال المضارعة فى مقام الجزاء وغيره سبعة وثلاثين ؛ذلك لأنَّ الفعل المضارع بما تحمله دلالته من إفادة تجدُّد الحدث واستمراره هو الأنسب لمقام الوعد والضَّمان .

ففى مقام الجزاء خاصَّة اكتست الأفعال ثوب المضارع الدال على تجدُّده واستمراره حتى يطول زمن المجازاة إلى أبعد زمان ممكنٍ فتأنس نفس الموعود وتطمئن فى الحال العاجل والمستقبل الآجل ،تراه فى قوله ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ وقوله

(١) ينظر : التحرير والتنوير ١٤ / ١٧

﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرًا﴾ وقوله ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعۡظِمۡ لَهُۥٓ أَجۡرًا﴾ وقوله ﴿ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗا﴾

فقد جاء ورود الفعل المضارع فى مقام الجزاء عشر مرات ،وخرج عنه إلى التعبير بالجملة الفعلية ماضية الفعل فى موضع وحيد عند قوله ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدۡ ظَلَمَ نَفۡسَهُۥ﴾ ليبرز العاقبة السيئة لذلك المتجاوز للحدود فى ثوب الأمر المُحقّق الوجود تنفيرا للمكلّفين مِن عاقبة تجاوز الحدّ .

وإلى بناء الجزاء فى ثوب الجملة الاسمية الدالة على الثبوت فى موضع وحيد حكاه قوله تعالى ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓ﴾ ؛لأنّ ذلك هو الأنسب لمقام التوكل على الله سبحانه.

ثمّ إنّك ترى النّظم الكريم فى السورة الكريمة يؤثر من أفعال المضارع خاصة ما مِن شأن مادته الدلالة على تغيُّر وانتقال ،وهذا يحسُن فى مقام الوعد والضّمان ،مِن مثل الفعل المضارع (يحدث) تاليا لحرف الرجاء (لعلّ) عند قوله سبحانه ﴿لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحۡدِثُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ أَمۡرٗا ﴾ وكالفعل (يجعل) عند قوله ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ﴾ وقوله ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا ﴾ ،وكالفعل (يُخرِج) فى قوله ﴿لِّيُخۡرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ ومن مثل الفعل المضارع المقرون بالسين فى قوله ﴿وَإِن تَعَاسَرۡتُمۡ فَسَتُرۡضِعُ لَهُۥٓ أُخۡرَىٰ ﴾ وقوله ﴿سَيَجۡعَلُ ٱللَّهُ بَعۡدَ عُسۡرٖ يُسۡرٗا ﴾ حيثُ إنّ السِّين تخلّص المضارع المُثبت مِن الزّمن الضّيق ،وهو زمن الحال ؛ــ لأنّه محدود ــ إلى الزّمن الواسع غير المحدود ،وهو الاستقبال [1] وقد آثر النّظم الكريم السِّين هنا دون (سوف) مثلا ؛لأنّ "العرب إذا أرادت تكرار الفعل ،وتأكيده ،وعدم التنفيس فيه أى: عدم جعله للمستقبل البعيد أدخلت عليه السين " [2] ،وهذا ما يُناسب مقام الوعد والضمان .هذا ،والتقاء دلالة الفعل على التغيُّر والانتقال مع دلالة المضارع

(١) النحو الوافى مع ربطه بالأساليب الرفيعة والحياة اللغوية المتجددة لعباس حسن١/٦٠ط:دار المعارف مصر ط : ثالثة دت .

(٢) النحو الوافى لعباس حسن ١ / ٦٠

الدالّ على التجدُّد يشى بضمان الوعد ،وأنّه واقع لا محالة حالا أو مستقبلا ،فيعود ذلك على نفس المعنىّ بالخِطاب ،وهو المطلّق الفقير أو صاحب الضيق ،فى السُّورة الكريمة بالطمأنينة والسَّكينة .

**بناء الفعل على الماضى خلافا لمقتضى الظاهر فى مقام الوعيد :**

ففى مقام الوعيد ،حيث حكى النظم فى آخر السورة الكريمة عاقبة العتو والعناد ،تجد المفردة القرآنية قد جاءت فى ثوب الماضى (عتت ،فحاسبناها ،عذبناها ،فذاقت وبال ،وكان عاقبة أمرها ،أعد الله لهم) حيث إنّ الماضى يتلاقى مع مقام التكريم والإقبال عليه صلى الله عليه وسلم ،حيث يخفُّ معه الوطء ،وكأنّ الحديث ما هو إلا سلوى لشخصه الكريم ،حيث تقبُح فى هذا المقام مواجهة المخاطب بما حلّ بالمستكبرين المعاندين .

**غلبة اتصال صيغ الأمر بواو الجماعة :**

اشتملت سورة الطلاق على أربع عشرة صيغة للأمر تنوعت بين صيغة فعل الأمر وبين الفعل المضارع المسبوق بلام الأمر ،اطرد بناء فعل الأمر فى السورة الكريمة على اتصاله بواو الجماعة وذلك فى اثنى عشر موضعا هى (طلقوهن ،أحصوا ،اتقوا ،فأمسكوهن ،فارقوهن ،أشهدوا ،أقيموا ،أسكنوهن ،فأنفقوا ،فآتوهن ،ائتمروا ،فاتقوا) واطراد بناء فعل الأمر فى السورة الكريمة على اتصاله بواو الجماعة فيه من تخفيف وطأة الخطاب عليه صلى الله عليه وسلم ما لا يخفى ،حيث أفاد اتصال واو الجماعة بفعل الأمر توجيه الخطاب للأمة ،وإنْ كان الخطاب فى فاتحة السورة للنبى خاصّة .أما المضارع المقترن بلام الأمر فقد اطرد بناؤه فى السورة الكريمة على وروده للواحد حيث خلا بناؤه من ضمير الجماعة ،وقد كان وروده فى موضعين اثنين (لينفق ،فلينفق) عند قوله ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ﴾ ذلك لأنّ الإنفاق واجب على آحاد المكلفين جميعهم ،لا فرق بين الغنى منهم والفقير ،وهذا يناسبه التعبير بالفعل للواحد .

وقد آثر النَّظم الكريم هنا التعبير بالمضارع المقترن باللام من بين صيغ الأمر ؛لأنّ صيغة المضارع تدلّ على التجدُّد ،وهذا يناسب مقام الإنفاق .

أيضًا اطّرد بناء الفعل المضارع المسبوق بلا الناهية على اتصاله بواو الجماعة ،فى قوله (لا تخرجوهن ) وقوله (لا تضاروهن) فى السورة الكريمة ليكون الخطاب مسوقا للأمة مراعاة لمقام تكريمه صلى الله عليه وسلم .

**اطّراد توكيد الفعل الماضى المسند إلى لفظ الجلالة :**

فقد اطرد بناء الفعل الماضى المسند إلى لفظ الجلالة خاصة على التوكيد بـــ (قد) لإفادة التحقُّق من مثل (قد جعل) فى قوله ﴿قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾ ،و(قد أنزل) فى قوله ﴿قَدْ أَنزَلَ

ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴾ ،و(قد أحسن ) فى قوله ﴿قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا﴾ و(قد أحاط) فى قوله ﴿قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ ،؛ذلك لأنّ الترغيب جانب مُهمّ بُنيت عليه السُّورة الكريمة ؛وقد جاء ذلك فى ثوب التأكيد على الوعد والضمان .

وقد جاء على شاكلة الفعل الماضى اسم الفاعل فى زمن الماضى ،فقد جاء أيضا مؤكّدا ،كما فى قوله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ﴾ ؛ذلك لأنّ اسم الفاعل (بالغ) هنا بمعنى بلغ ،ومجىء هذه الأخبار مُؤكّدة أمر يتلاقى مع مقام الوعد والضّمان .

**غلبة الإشارة لأحكام التكليف :**

ثمّ إنّ تكرار الإشارة عقب أحكام التكليف فى السُّورة الكريمة ثلاث مرات ،مرّة فى قوله ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾ إشارة إلى الأمر بالطلاق فى الطهر الخالص وإلى النهى بعدم إخراج المعتدات من بيت الزوجية ،ومرة فى قوله ﴿ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ إشارة إلى الإشهاد عند الإمساك أو المُفارقة إذا شارفَت العدّة على الانتهاء ،وأُخرى فى قوله ﴿ذَٰلِكَ أَمْرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْ ﴾ بعد قصّ النّظم الكريم لآجال المُعتدات ،وهذا أمر يشي بعظمة هذه الأحكام عظمة تتلاقى مع مقام التكريم والإقبال ،فالحكم التشريعي الوحيد الذى خلا من الإشارة هو الأمر بتوفير السّكن والأمر بوجوب الإنفاق على هؤلاء المعتدات فلم تجئ عقب قوله ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا۟ عَلَيْهِنَّ ۚ وَإِن كُنَّ أُو۟لَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا۟ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۖ وَأْتَمِرُوا۟ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ ۖ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ﴾ إشارة ،وذلك لأنّ هذه الآية الكريمة قد تلتها آية رفع التكليف لما فوق الوسع ـــ والله لم يكلّف عباده إلا بما فى طاقتهم ،وهذه رحمة الشّارع الحكيم بعباده المكلّفين ـــ عند قوله ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ

﴿فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ ففى ظنّى أنّ الإشارة إذا أعقبت هذه الآية بما تشتمل عليه مِن تيسير فإنّ هذا الصّفو سيشوبه التّكدير لا محالة .

**بناء الكلمة على التنكير والتعريف فى سورة الطلاق :**

معلوم عند علماء اللغة أنّ التعريف قسيم التنكير ،وأنّ الاسم إمّا نكرة ،وإمّا معرفة ،ولاثالث لهما ،ومِن هُنا فقد بنيت الكلمة فى سورة الطلاق على هذين القسمين ،فكلٌ له شيوع ظاهر فى السُّورة الكريمة ،وقد جاء بناؤه فى موقعه الذى يقتضيه مرام النّظم الكريم .أمّا التنكير فقد جاء فى ست وأربعين موقعا من السورة الكريمة ، وقد سخّره النّظم فى الغالب ليؤدى معانى التعظيم والتكثير والعموم تلاقيا مع إبراز معانى الوعد والضّمان والإقبال والتكريم التى تحاول السُّورة الكريمة الوقوف عليها ،فتجد التنكير يكثر فى مواطن تأنيس نفوس المكلفين ولاسيّما فى مواضع الفاصلة التى حكت الوعود كما أشرت آنفا .

كما تكاثرت النّكرات حين حكى النّظم الكريم جانبا مِن جوانب الوعيد فى لفظ (قرية ،حسابا ،شديدا ،عذابا ،نكرا ،وبال ،عاقبة ،خسرا) ليكون التنكير نفسه أداة من أدوات تفظيع المشهد وتقبيح الصورة .

أمّا التعريف فى السُّورة فقد تنوّعت أشكاله ،وتعددت طرقه ،تصدّر تعريف الاسم بالإضافة هذه الأشكال حيث جاء ذلك فى سبعة وعشرين موقعا ،وقع تعريف الاسم بالإضافة للضمير خاصّة فى اثنين وعشرين موضعًا هى (لعدتهن ،ربكم ،بيوتهن ،أجلهن ،حسبه ،أمره ،نسائكم ،فعدتهن ،أجلهن ،حملهن ،سيئاته ،وجدكم ،حملهن ،أجورهن ،ربها ،سعته ،رزقه ،أمرها ،ربها ،رسله ،أمرها ،مثلهن ) وقد وقع الاسم مضافا إلى ضمير النّسوة خاصّة فى ثلاثة عشر موضعا ؛وفى هذا تناسب واضح مع قضايا السُّورة الكريمة وأهدافها التى تركّزت على قضايا النِّساء خاصّة ،ولهذا سُمِّيت السُّورة الكريمة بالنساء الصغرى .

ووقع الاسم معرفا بالإضافة للاسم العلم (لفظ الجلالة) فى أربعة مواضع هى لفظ (حدود مرتين ، أمر ،ءايات ) وذلك لغرض التعظيم،أمّا التعريف بالعلمية فصوّره لفظ الجلالة ،حيث تكرّر ورود لفظ الجلالة العلم (الله) فى السورة الكريمة خمسة وعشرين مرّة ،فكان الغرض من التعريف بالعلمية فى السورة إحضاره فى ذهن السامع ابتداء باسم مختصّ به [1] ،حيث إنّ لفظ الألوهية بما فيه من مَعانى العظمة والكبرياء والقدرة المطلقة فيه مِن التأنيس والتحفيز ما لا يخفى لاسيّما فى هذا المقام أعنى مقام الفراق حيث تضيق النّفس وتضجر ،وفيه أيضًا زجر المُكلّف وتخويفه إذا حثّته نفسه على الظُّلم والتعدّى ،لاسيّما والطّلاق يكثر فيه التلاعب والاحتيال ،وأنّ المرء إذا علم أنّ له ربًّا يتّصف بكمال القدرة اللازم عن معنى الألوهية خاف ورجع عن ظُلمه وعُدوانه .

---

(١) ينظر : الإيضاح للخطيب القزوينى ص ٤٠

أمَّا التعريف بالألف واللام فوقع فى خمسة عشر موضعًا (النبى ،النساء ،العدة ،الشهادة ،اليوم ،الآخر ،المحيض ،الأحمال ،الألباب ، الصالحات ،الظلمات ،النور ،الأنهار ،الأرض ، الأمر) ،وأغلب هذه الأسماء أسماء ذوات ،فأسماء الذوات منها عشرة أسماء هى (النبى ،النساء ،اليوم ،المحيض ،الأحمال ،الألباب ،الظلمات ،النور ،الأنهار ،الأرض) ،وهذه الغلبة فى أسماء الذات مرجعها بناء السُّورة الكريمة على الوعد والضَّمان الذى يناسبه بناء المفردات على الشىء المحسوس الذى له معنى يقوم بذاته .

**بناء الكلمة على التعادُل والتقارُب فى الحروف :**

من الأمور التى وجب على الباحث الوقوف عندها مَليًّا فى سورة الطلاق ،والتى شكَّلت أمرًا ملموسًا : بناء الكلمة على التعادل والتقارب فى الحروف ،حيث تجد النظم الكريم يؤثر تجاور مفردتين هما ينتسبان لأب واحد ،فتراه حينا يجمع بين الفعل ومصدره ،وحينا بين الاسم وفعله ،وحينا بين الفعل الماضى والأمر منه ،وهذا ما جعله يشكل نغما عذبا يشنف الأذن حتَّى إنَّه ليخيل إلى سمعك أنَّ اللفظة قد كرِّرت بعينها ،وما هو بتكرار ،ترى هذا التقارب الذى نشير إليه فى أحد عشر موضعا ،هى (طلقتم ،طلقوهن) و(لعدتهن ،العدة) و (لا تخرجوهن ،لا يخرجن) و (أشهدوا ،الشهادة) و (المحيض ،يحضن) و(الأحمال ،حملهن) و (أسكنوهن ،سكنتم) و (أولات حمل ،حملهن) و (ذو سعة ،سعته) و (فحاسبناها ،حسابا) و(عذبناها ،عذابا)

ومِن هذا الباب أيضًا : تكرار لفظة بعينها ،حيث تكرر لفظ الجلالة خمسة وعشرين مرة ،وجاء لفظ (شىء) مثلا فى السورة الكريمة ثلاث مرات ،وتكرر تركيب (ومن يتق الله) ثلاث مرات ،وتكرر لفظ (حدود) ولفظ (معروف) ولفظ (لينفق) مرتين .

## الخاتمة

الحمد لله الذى علّم بالقلم ،علّم الإنسان ما لم يعلم ،والصّلاة والسّلام على سيّد العرب والعجم ،وعلى آله وأصحابه شُمُوس الظّلام ،والتابعين لهم بإحسان ،واشملنا برحمتك معهم يا رحمن ،يا رحيم ،وبعد :

لقد كشفَ البحثُ فى موضوع (سمت البناء التركيبى لسورة الطلاق) عن نتائجَ مهمَّة، أذكر مِنها:

**أولا** : أهمية الدراسة فى هذا الباب لتعلّقه بالبحث فى خواصّ التراكيب فيبين للمتأمِّل للبيان شعرا كان أو نثرا خصائصه ومنازعه الأسلوبية ، وطرائق مبانيه ،وكذا مذهبه فى بناء الصور والألوان البلاغية على اختلافها ،حيث إنّ البناء التركيبى هو القالب والمنوال الذى يجرى فيه النَّظم ،أو الوعاء الذى يضمّ أدوات السَّبك والنَّسج ،أو هو المترع والمهيع الذى يترسَّمه صاحب كلّ ذى بيان ،فلا يضلّ عنه بحال .

وهو نافذة يمكن أنْ تشرف منها برأسك على الإعجاز القرآنى من خلال الوقوف على العناصر المكونة لهذا البيان القرآنى الذى أعجز قوما هم مصاقع لُسْن حذقوا البيان ، وعرفوا كيف يحاك .

**ثانيا** : كان لأسلوب الشرط فى سورة الطلاق حضور لافت وقد وظّفه النظم الكريم توظيفًا جيدًا فى تبيين أحكام اجتماعية أسرية هى غاية فى الأهمية لَمَا فى أسلوب الشرط مِن الإثارة والتنبيه ،وكأنّه يقرع به سمع المخاطب وعقله ووجدانه ،ويحمله على الإصغاء وترقُّب مضمون جزاء الشرط ،مع ما فيه من الإيجاز وتكثيف المعنى .

**ثالثا** : تَجلّت فى أُسلوب الشَّرط سِمَة التنوُّع الذى يعكس التفنُّن والدِّقة فى انتقاء المُفردات فهو فى كلّ موضع ينتقى الأنسب والأليق بالسِّياق مفردة كانت أو أسلوبا ،والتجاوُر الذى وصل إلى حدّ التتابُع حينًا ،وحضور الجواب وتنوعه ،كما اتَّسم الشَّرط بالتغلغُل فى بنيان سورة الطلاق كلّها ،حيث اعتمد عليه النظم الكريم ؛لأنّه طريق مُهمّ لتثبيت أحكام التشريع فى نفوس المكلّفين لما يشتمل عليه من معانى الجزاء والعقاب والخُلْف والمُكافأة ،ولأنّه ينفذ إلى نفوس المكلّفين بيُسر وسُهولة فتتلقاه بمزيد عناية واهتمام .

**رابعا** : من الملاحظ على أسلوب الشرط فى سورة الطلاق أنّه تلاحم مع غيره من طرائق التصوير كالأساليب الإنشائية مِن الأمر والنهى والنداء ،فحين تتأمَّل آيات السورة الكريمة تجد للشَّرط خيوطا ممتدة فى نسيج البناء كلّه .

**خامسا** : كما كان لوقوع الشرط فى فواصل الآيات بالغ الأثر فى انطباع الجزاء فى الذهن ؛إذ إنّ خاتمة الكلام هى آخر ما تظل عالقة بسمع المخاطب وفؤاده ونفسه فيكون لها من التأثير فى الوجدان ما لا يخفى .

**سادسا** : يُلمح فى السورة كثرة عناصر الربط وطرائق الاقتران والتى أوجدت لُحمة قوية بين جمل الآية الواحدة ،وبين الآية وأختها ،وقد جاءت أحكام السورة متسلسلة فى ترتيب بديع ،وكأنّ هذا التسلسل

يومئ إلى قوة البناء الذى يجب أن يكون عليه الكيان الأسرى حتَّى فى المواقف الحرجة الضيقة عندما ينشأ الحزن كما فى موقف الطلاق الذى قام عليه بناء السورة الكريمة .

**سابعا** : التناسب أحد السِّمات التى شكَّلت بناء سورة الطلاق كغيرها من سور القرآن الكريم ،فقد وقف البحث على مظاهر عديدة للتناسب فى السورة الكريمة كتناسب معانيها مع اسمها (الطلاق أو النساء الصغرى) ،وكالتناسب بين أجزاء السورة الكريمة كتناسب مقصودها لمطلعها وخاتمتها وتناسب الفاتحة والخاتمة وتناسب الخاتمة والمقصد ،والتناسب بين أساليبها ،وهو ما درس مفصَّلا تحت عنوان :التناسب بين العمل والجزاء ؛لأنَّ السُّورة مبنية فى أساليبها على الترغيب فى المقام الأول ،ومن لوازم الترغيب : ذكر العمل والجزاء .

**ثامنا** : الترقى أحد السِّمات التى بَدت فى بناء تركيب سورة الطلاق ،وقد ظهر ذلك فى عدّة أشكال ،كسمت الترقي من الشريف من إلى الأشرف أو من العظيم إلى الأعظم ،وله اعتبارات ،كالترقى باعتبار الجزاء ،وكالترقى باعتبار تشريف المخاطب وتكريمه ،وكالترقى فى صفات العطاء ،وكسمت الترقى من اللزوم إلى الألزم ،أو من الأخفّ إلى الأثقل ،وقد جاء عليه الترقى باعتبار تكليف المخاطب ،وكسمت الترقى من الشديد إلى الأشد ، أو من الفظيع إلى الأفظع ،وقد جاء على هذا الوصف ترقى ذكر ألوان العذاب فى السورة الكريمة ،وكسمت الترقى من القريب إلى الأقرب ،وغيرها .

**تاسعًا** : الكلمة فى سورة الطلاق لها سمتها الخاص بها الذي يتناسب مع قضايا السُّورة وأهدافها ،ومن سمات بناء الكلمة فى السورة بناء الكلمة على التعادُل والتقارُب فى الحروف وغلبة بناء الفعل على المضارعة فى مقام الجزاء خاصَّة ،وغلبة اتصال صيغ الأمر بواو الجماعة ،واطِّراد توكيد الفعل الماضى المسند إلى لفظ الجلالة ،واطِّراد بناء الفاصلة على التنكير ،وغلبة بناء الفاصلة على الاسم فى صورة المصدر ،وهكذا .

*********

وبعد ،،، فهذا جهدى ،وهو جهد المقل ،وحسبى فيما اجتهدت حسن النية ،إن فاتنى حسن العمل ،وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ،والحمد لله رب العالمين .

## فهرس المصادر والمراجع بعد القرآن الكريم :


- إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم لمحمدأبوالسعود-ط:دارإحياءالتراث العربي-بيروت.
- الإتقان في علوم القرآن لجلال الدين السيوطي ـــ تح : سعيد المندوب ـــ ط : دار الفكر ـــ لبنان ـــ ط : أولى ـــ ١٤١٦ هـ ـــ ١٩٩٦م
- أساليب الأمر والنهى فى القرآن الكريم وأسرارها البلاغية ليوسف عبدالله الأنصارى ـــ جامعة أم القرى ـــ ١٤١٠ هـ ـــ ١٩٩٠ م
- أسرار البلاغة للإمام عبد القاهر الجرجانى ـــ تعليق : د محمد عبد المنعم خفاجى ـــ ط : مكتبة الإيمان ـــ القاهرة .
- أسنى المطالب في أحاديث مختلفة المراتب لمحمد بن درويش ـــ ط : دار الكتب العلمية
- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن للشنقيطي ـــ تح : مكتب البحوث والدراسات ـــ ط : دار الفكر للطباعة والنشر ـــ بيروت ـــ ١٤١٥ هـ ـــ ١٩٩٥م
- إعجاز القرآن للباقلانى ـــ تح : السيد أحمد صقر ـــ ط : دار المعارف ـــ مصر ـــ ط : خامسة ـــ ١٩٩٧ م .
- الإعجاز فى نص الخطاب القرآنى ـــ بحث مقدم إلى مؤتمر النص بين التحليل والتأويل والتلقى ـــ د عصام العبد زهد ـــ الطبعة الأولى ـــ ١٤٢٧ هـ ـــ ٢٠٠٦ م .
- الأعلام للزركلى ـــ ط : دار العلم للملايين ـــ ط : خامسة عشرة ـــ ٢٠٠٢ م
- أيسر التفاسير لكلام العلىّ الكبير لأبى بكر الجزائرى ـــ ط : مكتبة العلوم والحكم ـــ المدينة المنورة ـــ ١٤١٤ هـ .
- الإيضاح في علوم البلاغة للخطيب القزويني ـــ تح : بهيج غزاوي ـــ ط : دار إحياء العلوم ـــ بيروت ـــ ط : رابعة ـــ ١٤١٩ هـ ـــ ١٩٩٨م
- البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي ـــ تح : عادل أحمد عبد الموجود ـــ علي محمد معوض ـــ ط : دار الكتب العلمية ـــ بيروت ـــ ط : أولى ـــ ١٤٢٢ هـ ـــ ٢٠٠١ م
- البرهان في علوم القرآن للزركشي ـــ تح : محمد أبو الفضل إبراهيم ـــ ط :دار المعرفة ـــ بيروت ـــ ١٣٩١ هـ .
- بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح لعبد المتعال الصعيدى-ط:مكتبة الآداب-١٤٢٠هـ-١٩٩٩م.
- البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها وصور من تطبيقاتها بهيكل جديد من طريف وتليد ، للدكتورعبد الرحمن حسن حَبَنَّكة الميداني ـــ ط : دار القلم ـــ دمشق ـــ ط : أولى ـــ ١٤١٦ هـ ـــ ١٩٩٦ م

- البناء التركيبي فى ديوان سلامة بن جندل ـــ أحمد رمزى عبد اللاه غنيم ـــ رسالة ماجستير ـــ جامعة الأزهر تحت إشراف أد على عبد الحميد أحمد عيسى ـــ ٢٠١٠ م .
- التبيان فى البيان للإمام الطيبي المتوفى سنة ٧٣٤ هـ جمعا ودراسة د عبد الستار حسين زموط ـــ رسالة دكتوراة ، ج الأزهر ـــ ١٣٩٧ هـ ـــ ١٩٧٧ م .
- التحرير والتنوير للشيخ محمد الطاهر ابن عاشور ـــ ط : دار سحنون للنشر والتوزيع ـــ تونس ـــ ١٩٩٧ م
- التسهيل لعلوم التنزيل للكلبى ـــ ط: دار الكتاب العربي ـــ لبنان ـــ ط : رابعة ـــ ١٤٠٣ هـ ـــ ١٩٨٣ م .
- التصوير الفنى لسيد قطب ـــ ط : دار الشروق .
- التعريفات للجرجاني ـــ تح: إبراهيم الأبياري ط : دار الكتاب العربي ـــ بيروت ـــ ط : ١ ـــ ١٤٠٥ هـ .
- تفسير الطبرى ـــ ط : دار الفكر ـــ بيروت ـــ ١٤٠٥ هـ .
- التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب للرازى ط : دار الكتب العلمية ـــ بيروت ـــ ط : أولى ١٤٢١ هـ ـــ ٢٠٠٠ م
- التناسب فى تفسير الإمام الرازى ، دراسة فى أسرار الاقتران ـــ منال حامد المسعودى ـــ جامعة أم القرى .
- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للسعدي ـــ تحقيق: ابن عثيمين ـــ ط : مؤسسة الرسالة ـــ بيروت ـــ ١٤٢١ هـ ـــ ٢٠٠٠م .
- الجواهرالحسان فى تفسيرالقرآن للثعالبى-ط:مؤسسة الأعلمى للمطبوعات-بيروت-دت .
- حدائق الروح والريحان فى روابى علوم القرآن للهررى ـــ ط : دار طوق النجاة ـــ بيروت ـــ لبنان ـــ الطبعة الأولى ـــ ١٤٢١هـ ـــ ٢٠٠١ م .
- خصائص التراكيب د محمدمحمدأبوموسى-ط:مكتبة وهبة-ط:٦-١٤٢٥هـ-٢٠٠٤ م
- خصائص الحروف العربية ومعانيها لحسن عباس ـــ ط : منشورات اتحاد الكتاب العرب ـــ ١٩٩٨ م .
- الخصوصيات البلاغية فى رسائل أبى العلاء الإخوانية ـــ نداء ثابت العرابى ـــ رسالة ماجستير تحت إشراف د محمد محمد أبو موسى ـــ ١٤٢٤ هـ ـــ ٢٠٠٣ م ـــ جامعة أم القرى .
- دراسة فى البلاغة والشعر د : محمد محمد أبو موسى ـــ ط : مكتبة وهبة ـــ ط : أولى ـــ ١٤١١ هـ ـــ ١٩٩١م .

| |
|---|
| دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر الجرجانى ـــ تح : د التنجي ـــ ط : دار الكتاب العربي ـــ بيروت ـــ ط : أولى ـــ ١٤١٥ هـ ١٩٩٥م . |
| دلالات التراكيب ـــ دراسة بلاغية للأستاذ الدكتور محمد محمد أبو موسى ـــ ط : مكتبة وهبة ـــ القاهرة ـــ ط : ثالثة ـــ ١٤٢٥ هـ ـــ ٢٠٠٤ م . |
| زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي-ط: المكتب الإسلامي-بيروت-ط :٣ - ١٤٠٤ هـ |
| زهرة التفاسير للإمام محمد أبو زهرة ـــ ط : دار الفكر العربى . |
| فى النحو العربى نقد وتوجيه د مهدى المخزومى ـــ ط : دار الرائد العربى ـــ بيروت ـــ ط : ثانية ـــ ١٤٠٦ هـ ـــ ١٩٨٦ م . |
| فى ظلال القرآن لسيد قطب ـــ ـــ ط دار الشروق ـــ القاهرة ـــ دت . |
| الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل للزمخشري ـــ تح : عبد الرزاق المهدي ـــ ط : دار إحياء التراث العربي ـــ بيروت . |
| الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية لأبي البقاء الكفوى ـــ تح : عدنان درويش ـــ محمد المصري ـــ ط : مؤسسة الرسالة ـــ بيروت ـــ ١٤١٩ هـ ـــ ١٩٩٨م . |
| لباب النقول فى أسباب النزول للسيوطى ـــ ط : دار إحياء العلوم ـــ بيروت . |
| لسان العرب لابن منظور ـــ ط : دار صادر ـــ بيروت ـــ ط أولى ـــ د ت . |
| مباحث فى التفسير الموضوعى لمصطفى مسلم-ط دارالقلم-دمشق-ط:أولى-١٩٨٦ م |
| المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر لابن الأثير ـــ تح : محمد محي الدين عبد الحميد ـــ ط : المكتبة العصرية للطباعة والنشر ـــ بيروت ـــ ١٩٩٥م . |
| مجلة الوعى الإسلامى عدد ( ٢٧٣ ) ، رمضان ١٤٠٧ هـ ـــ مايو ١٩٨٧ م . |
| مجلة منبر الإسلام مجلة مصرية تصدرها وزارة الأوقاف والمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ـــ عدد شهر ذى القعدة ١٣٨٩ هـ ١٩٧٠ م . |
| مراجعات فى أصول الدرس البلاغى د محمد محمد أبو موسى ـــ ط : مكتبة وهبة ـــ ط : أولى ـــ ١٤٢٦ هـ ـــ ٢٠٠٥ م . |
| مراصد المطالع فى تناسب المقاطع والمطالع،بحث فى العلاقات بين مطالع سورالقرآن وخواتيمها لجلال الدين السيوطى-قرأه وتممه د:عبدالمحسن بن عبدالعزيزالعسكر ط:مكتبة دارالمنهاج-الرياض- ط :١ - ١٤٢٦ هـ . |
| مصاعد النظرللإشراف على مقاصدالسورللبقاعي- قدم له وحققه وعلق عليه وخرج أحاديثه الدكتور عبدالسميع أحمد حسنين-ط مكتبة المعارف-الرياض-ط:أولى-١٤٠٨هـ-١٩٨٧م. |

معاني النحو للسامرائي- ط: دار الفكر العربي- عمان- ط: أولى-١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م

المعجم الوسيط ــ تأليف: إبراهيم مصطفى / أحمد الزيات / حامد عبد القادر / محمد النجار، تح : مجمع اللغة العربية ــ ط : دار الدعوة .

المغرب في ترتيب المعرب للمطرزى ــ تح : محمود فاخوري و عبد الحميد مختار ــ ط : مكتبة أسامة بن زيد – حلب ــ ط : أولى ــ ١٩٧٩ م .

المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني-تح:محمدسيدكيلاني-ط:دارالمعرفة-لبنان .

مقدّمة ابن خلدون ــ تح عبدالله محمد الدرويش ــ ط : دار يعرب ــ دمشق ــ ط : أولى ــ ١٤٢٥ هـ ــ ٢٠٠٤ م .

ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل للإمام أبي جعفر بن الزبير الغرناطي ــ ط : دار الكتب العلمية ــ بيروت ــ دت .

ملاك التأويل لابن الزبير الغرناطي-تح:د محمودكامل أحمد-ط:دارالنهضة العربية-بيروت دت.

من أسرار التعبير القرآني ــ دراسة تحليلية لسورة الأحزاب ــ د محمد محمد أبو موسى ــ ط : مكتبة وهبة ــ ط : ثالثة ــ ١٤٣٣ هـ ــ ٢٠١٢ م .

منهاج البلغاء وسراج الأدباء لحازم القرطاجنى تح محمد الحبيب ابن الخواجة-ط:دارالغرب الإسلامى

النحو الوافى مع ربطه بالأساليب الرفيعة والحياة اللغوية المتجددة لعباس حسن ــ ط : دار المعارف ــ مصر ــ ط : ثالثة ــ دت .

نظم الدرر في تناسُب الآيات والسور للبقاعي ــ ط : دار الكتاب الإسلامي بالقاهرة .

النكت والعيون للماوردى ــ تح : السيد بن عبد المقصود بن عبد الرحيم ــ ط : دار الكتب العلمية ــ بيروت .

نِهَايةُ الأَرَب في فُنون الأدب للنويريّ ــ تح : محمد مفيد قميحة ــ ط : دار الكتب العلمية ــ بيروت ــ لبنان ــ ط : أولى ــ ١٤٢٤ هـ ــ ٢٠٠٤ م .